

العراق جنة لولا

د. حامد العطية

2024م

العراق جنة لولا

د. حامد العطية

2024م

المحتويات

مقدمة

العراق جنة، فمن يعترض على ذلك؟ هو جنة في معظم المقاييس، الأرض الخصبة والمياه الوفيرة والثروات المعدنية والنفط والغاز وعدد سكانها لا اكتظاظ ولا قلة، والموقع الجغرافي، والطقس المعتدل نسبياً، والتاريخ المجيد، وإن كان قديماً، ومراقد الصالحين، لكنه جنة غير مكتملة، حباها الله بكل النعم، ولم يحفظها أهلها، وفرطوا بها، وأدخلوا الفساد عليها، واحتلها الأعداء، وتسرب لها المخربون، وسيطر عليها الطغاة والمفسدون، وخربتها الحروب والاضطرابات، وهجرها الأكفاء، فلم تعد تلك الجنة، لذلك هي جنة لولا.

طرد أول البشر من الجنة لأنهم لم يستحقوها، وفسدت الجنة العراقية لأن أهلها لم يرعوها، وهم يتحملون المسؤولية الكبرى عما آلت إليه من فقر واضطراب وتلوث وضياع فرص وتخلف.

لا يقدم هذا الكتاب عرضاً وافياً لأحوال الجنة العراقية المتدهورة ولا يشخص كافة أسباب خرابها لكنه محاولة من خلال بعض مقالاتي المنشورة لاستطلاع عناصر ومظاهر التدهور ودعوة لبذل المزيد من الجهد البحثي المعمق لهذا الموضوع الملح، لعل الجنة تعود كما أرادها الخالق، ويكون العراقيون جديرين بها.

العراق جنة لولا

في أواسط القرن الماضي كان اللبنانيون يقيسون مدى نجاح مواسمهم الصيفية بعديد المصطافين العراقيين، آنذاك لم تكن السياحة حكراً على العراقيين الموسرين، فما أن تبدأ عطلة المدارس الصيفية حتى يشد الآلاف من المعلمين والمعلمات الرحال إلى مصائف لبنان، ولعل زملائهم اليوم يذرفون الدمع على تلك الأيام الخوالي عندما كان المعلم يقبض جزاء عمله اجراً مناسباً إضافة إلى احترام وتبجيل الناس، ولكن عراقيي ذلك الزمان – وكل الأزمنة- لا تسحرهم تماماً أجواء بحمدون البديعة ولا تشبع أذواقهم النهمة أسواق بيروت العامرة، وإن سألتهم عن رأيهم لردوا عليك بصوت واحد: لبنان جنة لولا... يتوقفون برهة لينظروا حواليهم لئلا يسمعهم لبناني غيور على وطنه قبل أن يكملوا: لولا اللبنانيون!!

في جنة العراق لم يتعرض آدمها وحوائها للطرد، بل تركوا لاستيطانها وتعميرها، وعندما كان آدم العراقي يخرج لصيد الأسود والنمور والغزلان كانت حواء العراقية تجري البحوث الزراعية على باب مغارتها أو كوخها، وقبل أن يصطاد آدم كل الطرائد بين الرافدين كانت حواء قد اكتشفت الزراعة، وإذا كان الغربيون يفتخرون علينا بصناعة عمرها ثلاثة قرون فقط فلنا كل الحق أن نتكبر عليهم باكتشاف الزراعة منذ ما يزيد على مائة قرن، ولولا الزراعة لكنا جميعاً أسارى العصر الحجري أو الحديدي...

العراق جنة لا نقولها تفاخراً أمام الغرباءء، ولا نرددها مثل أنشودة مدرسية مفروضة علينا من دون اقتناع حقيقي بفحواها، عندما يتفوه بها العراقي تكاد تساقط الكلمات من فمه رطباً جنياً، وعندما تتغنى بها عراقية تشم في أنفاسها عطر الجنة، لا عجب أن يولد فيه الأنبياء وأن يعيش ويموت فيه الأئمة والأولياء، أو يقتلون، ولا غرابة أن تبدأ به أول حضارة، هنا تعلم البشر الكتابة، وهنا أفاق العقل والفكر

والفلسفة والعلم بعد سبات طويل.، ولكن هل نحن خير خلف لذلك السلف الحضاري؟

لو قارنا بين جنة العراق وجنة الخلد لوجدنا تشابهاً بينهما، في بعض جوانب الجغرافية على وجه التحديد، فالجنة تجري من تحتها الأنهار والعراق يجري في وسطه نهران عظيمان، وفي الإثنين جنات من نخيل ورمان وفواكه متشابهة وغير متشابهة، ولكن هل حفظنا نحن العراقيون هذه النعم التي تكاد تجعل من بلدنا جنة في الأرض؟

لا مجال للمكابرة وإنكار الحقيقة، ولو كانت أمر من العلقم، ومن المؤكد بأن واقعنا المزري من صنع أيدينا من دون مواربة أغنية ثنائي الريف جواد وادي وعبد الواحد جمعة (مغنيان ريفيان من حقبة الخمسينات والستينات): "انا شبيدي كله من إيدي!"، أيدينا أهملت جنات النخيل حتى فقدنا عشرة ملايين نخلة في سبعينات القرن الماضي فقط، والطحالب التي غزت نهري دجلة والفرات بفعل سوء تدبيرنا وافراطنا في استخدام المخصبات أثناء التسعينيات، وبدلاً من شكر الله على نعمه بالاستفادة منها أشترى بها المتسلطون علينا السلاح لنقتل بها الأبرياء، وأخوتنا وأولادنا هم قتلوا أنفسهم عدواناً وبغياً على جيراننا.

إذا كنا قد ضيعنا بعض ملامح الجنة في بلدنا بفعل أيدينا فهل فينا شيء من صفات أهل الجنة؟ تبين الآية الكريمة التالية (الحجر:47) الخصائص المميزة لأهل الجنة: (ونزعنا ما في قلوبهم من غل أخواناً على سرر متقابلين)، وللأسف فإن حال العراقيين على النقيض من ذلك، فالقلوب متقيحة بالحقد الديني والطائفي والعنصري والحزبي والطبقي إلى درجة أستحلينا بها القتل الجماعي وذبح الأطفال وقطع رؤوس الأبرياء واغتصاب النساء ونهب الممتلكات، وهي أقوى دليل على فقدان الأخوة بيننا، والملايين منا تركوا بيوتهم وأسرتهم قسراً ولاذوا بالعراء يتوسدون الأرض أو يهيمون أذلاء بين الأغراب، وعندما نتقابل كرهاً نتبادل الاتهام والشتائم واللعنات واللكمات والركل وأحياناً الطلقات النارية والقنابل.

بعد استعراض هذه الحقائق لا بد من الاستدراك على عنوان المقالة، وقد أخطأت في صياغته كما شططت في المقاربة بين الوضع في العراق وبين الحالة اللبنانية، فعندما يخرج علينا أحد العراقيين المهجرين من خيمته في النجف ويقول: لا أريد من الحكومة العراقية سوى تركنا وشأننا لنلجأ إلى دولة اخرى" نتيقن بأن العراق ليس بجنة وإنما هو جحيم، وكما أن أهل الجحيم الأبدي لا يطيقون الحياة فيه ويتمنون الخروج منه أحياءً أو أمواتاً فقد غدت الحياة في العراق لا تطاق، وما صبر العراقيين عليها إلا من قلة الموت كما يرددون.

العراق جحيم لأننا طردنا الجنة من بلادنا، نحن الخائفون المترددون الاتكاليون المفوضون أمرهم إلى أسوء الخلق المنقادون وراء أقل الناس علماً ومعرفة الساكتون عن الحق المائلون مع الباطل والأهواء، نحن الذين لا زلنا على العصبية القبلية الجاهلية ولما يدخل الإيمان في قلوبنا، ولكن وعلى خلاف أهل الجحيم الأبدي لا تزال أمامنا فرصة أن نغير ما بأنفسنا، والبداية هي في التحلي بالشجاعة الكافية لنعترف مع أنفسنا وبعضنا البعض بأن الجحيم العراقي نتاج أيدينا، ولنفتح عقولنا على المعرفة وقلوبنا على العواطف السامية ولنجعل من العدل والقيم العليا نبراس حياتنا، آنذاك فقط تعود الجنة للعراق ونكون جديرين بها.

21 أيلول 2007م

العراق لوحة سوريالية

العراق بلد المتضادات، التي تحير الألباب، حتى بت أشك بأنه لا وجود له، ولن أندهش لو تبين فيما بعد بأنه ومثل كل ما في ألف ليلة وليلة خيال أو حلم، والدليل هو وصف حال العراق اليوم بالكابوس المرعب، وهل يعقل أن يكون هؤلاء القتلة الذابحون لرقاب الأبرياء المفترعون للعذارى الباقرون لبطون الحبالى الخانقون للأطفال والفاقئون للعيون بشراً؟ أم تراهم وحوشاً من صنع مخيلة مؤلف مختل العقل، أتعرفون بأن بغداد، التي يتشدق أدعياء العروبة من أحفاد هولاكو وتيمورلنك والزنج بأنها قلب العروبة وبوابتها الشرقية كلمة فارسية؟ وحتى لو كانوا جاهلين بمعنى بغداد بالفارسية، أي بستان الشيطان، فقد حافظو على تراثهم الشيطاني، فلا غرابة إذن خروج كل هذه الشياطين المتعطشين لدماء الأبرياء من أزقتها ومن البساتين المحيطة بها، فالشيطان لا يزال معبودهم، بالنقيض من ادعائهم الوحدانية لله، وقد أطاعوا أمر الشيطان الذي يطالبهم بقرابين دموية يومية من الأبرياء والأطفال.

العراق بلد المتناقضات، ويقال أن فيها حكومة من رئيس ووزراء، ولكني لا أرى حكماً أو حتى محاولة لحكم البلاد، إلا إذا كان الحكم في مفهومهم وممارساتهم يقتصر على عقد المؤتمرات الصحفية واصدار بيانات الاستنكار والتنديد واطلاق الشعارات الجوفاء وقبض الرواتب الضخمة وتوظيف المحاسيب والتغاضي عن الإرهابيين السفاحين.

حصيلة المائة سنة الأخيرة كيان مفكك ومجتمع مقسم واقتصاد متهالك وأطلال وخرائب، ولكن في العالم السوريالي تبدوا الأمور على غير حقيقتها، بل أن كل شيء مقبول ماعدا الحقيقة، والعرب منذ القدم فنانون سرياليون، ولكنهم لا يستخدمون الريشة والأصباغ أو النحت في فنهم، فهم وبشهادة كل الأمم أفضل فناني اللسان، حتى أن شاعراً بريطانياً مشهوراً كتب في إحدى قصائده بأن الحية التي أغوت حواء وآدم على أكل التفاحة كانت ناطقة بالعربية، لأن لا أحد أبرع منا في تلوين وتشكيل الكلمات الرنانة الجوفاء منذ الزمن

الجاهلي الغابر لقصيدة إذا بلغ الفطام لنا صبي تخر له الجبابر ساجديناً حتى الزمن العاثر الذي أصبح للمتجبر صدام مائة من الأسماء الحسنى (يزيد بواحد على الله جل وعلى) ابتدعها حسن العلوي سفير العراق في سوريا حالياً ورئيس تحرير ألف باء الصدامية في بداية ثمانينات القرن الماضي.

قبل ثلاث سنوات فقط كان غالبية العراقيين داخله بعثيون حزبيون، يحركهم صدام حسين وعصابته كما يشاء، كان بحق ربهم الأوحد، أو على الأقل كانوا مشركين، فساعة يعبدون الله ويلتزمون بشريعته، ولكنهم غالباً يطيعون أحكام صدام التي تناقض التعاليم الدينية، وكل الذين قتلوا في حروب صدام العدوانية ماتوا على دينه لا دين الله، فكل أتباع صدام عن اقتناع هم أما كفرة أو مشركون شرعاً لأنهم أما عبدوا الله وصدام أو عبدوا صدام وكفروا بدين الله، ولكن مادام العراق مشهد سوريالي، تختلط فيه الحقيقة بالخيال والصدق بالافتراء فلا عجب ولا استغراب.

الفنان حر في تصوير سوريالية الواقع على لوحة أو منحوته، لكن الاستعاضة عن الواقع بأوهام سوريالية مقامرة بالوجود، والقرآن الكريم شهادة ربانية على حقيقة الوجود، تدحض مقولة بعض الفلاسفة والمفكرين بأن العالم واقع متوهم أو ضرب من الأحلام، وإذا كان من الممكن الاحتفاظ باللوحة أو المنحوتة السوريالية في متحف إلى أمد بعيد فإن من المستحيل استمرار المشهد العراقي على سرياليته، فهل الحرب الأهلية وحدها كفيلة بنقل العراق من السوريالية إلى الواقع؟ الجواب: المنقذ الأوحد من الحرب هو.. المعجزة الآلهية.

العراقي باختصار: أنا شبيدي ....كله من إيدي

قلة من العراقيين يتذكرون الثنائي الغنائي الريفي: عبد الواحد جمعة وجواد وادي، وقد كانا نجمين من نجوم الغناء الريفي، التي سطعت في العهد الجمهوري الأول، وكل العهود الجمهورية في نظري كانت ملبدة بالغيوم السوداء، من النوع الذي لا يمطر سوى ما تصفه الآية الكريمة بالمطر السيء للمنذرين، ولعل أقل القليل يتذكرون أغنية أو أبوذية للمطربين، يرددان في أحد مقاطعها وبلهجة المحتار الملوع: انا شبيدي كله من إيدي، ولأن أحدهما، ولا أتذكر أيهما، إحدى يديه مقطوعة، دفعني للتساؤل مع نفسي حينئذ، وكنت وقتها شاباً غضاً لم تعركه التجارب، إن كان لليد المقطوعة صلة بالأغنية، وعلى مر الأعوام ظل هذا المقطع الاستهلالي من الأغنية، ولأسباب أجهلها تماماً أو لعله بدون سبب، يقفز من أعماق ذاكرتي إلى مقدمة أفكاري, وأحيانا تنطق به حنجرتي نشازاً، حتى أدركت يوماً عمق معاني ومدلولات هذه العبارة، التي قد يستسخفها الكثيرون لمجرد كونها نتاج عقل ريفي "معيدي" متخلف.

"أنا شبيدي...كله من إيدي" عبارة فلسفية، بل قد تكون فلسفة حياتية كاملة بحد ذاتها، إنها التناقض الفطري الراسخ في عقولنا وأفكارنا وفي سلوكنا، إنها المسألة الفكرية التي تحير عقولنا من أول الوعي والرشد حتى الخرف أو الموت، إنها السؤال اللغز الذي عجزنا جميعاً عن الإجابة عليه، حتى أولئك الذين استوطنوا دور الكتب في شارع المتنبي، إنها الجدال المستمر بين عقيدة الجبرية ومعارضيهم، لله درك يا أيها الشاعر الشعبي العراقي الذي ألفت كلمات هذه الأغنية، ما ألهمك التوصل إلى هذه الحقيقة التي وإن كانت ماثلة في الأذهان والضمائر واللاوعي لكنها مغيبة تماماً عن الإدراك والوعي؟ تختزل هذه العبارة تجربة جميع العراقيين، وهي إحدى المكونات الرئيسية لتراثهم الفكري المشترك، ودالة على سمة أو سمات أساسية مشتركة في شخصيتهم.

" أنا شبيدي....كله من إيدي" تستحق أن تسطر على علم العراق، أن تكون المقطع الاستهلالي والمتكرر في نشيدنا الوطني، وأن تكون أول كلمات يتعلمها كل طفل عراقي، وأن تطرز على وسائدنا تحت كلمتي صباح الخير، ولعل العبارة تلهم أحد الفنانين لتصميم شعار للعراق وحكومته، تكون الأيادي فيه – المبتورة أو المشلولة على أساس "انا شبيدي" وكذلك السليمة تعبيراً عن "كله من إيدي"- رموزاً للعراق.

اتركوا كتب علي الوردي جانباً، ولا حاجة لأساتذة وطلاب علم الاجتماع لارتياد مكتبات العراق، أو ما تبقى منها، أو للنزول إلى ميدان الحياة بحثاً عن توصيف للشخصية العراقية المنوالية، فقد سبقهم إليها عبد الواحد جمعة وجواد وادي، ولو انتبه لهذه الحقيقة فقهاؤنا وقادتنا ونخبتنا لتعلموا منها حل معضلتنا الكبرى ومن ثم انتشالنا من هوة الحيرة والضياع إلى يقين الصراط أو على الأقل لنلتمسه من خلال التجربة والخطأ.

نحن العراقيون كلنا لسان حال هذه العبارة، وتجسيد للتناقض التام بين صدرها وعجزها، بل إن الشطرين تعبير صارخ عن العجز الذي نعانيه، إنها تشخيص دقيق للعلة التي أنقضت ظهرنا واردتنا إلى الدرك الأسفل، ما الفائدة من الجدال حول القضاء والقدر وحرية الإرادة ما دام الجواب حاضراً على طرف ألستنا وفي سلوكياتنا، حتى أدركته قريحة الشاعر فعبرت عنه ببلاغة متناهية يحسده عليها أفحل الشعراء وأبلغ المتكلمين.

"أنا شبيدي" صرخة العاجزين الذين ينقادون ولا يقودون، يستجيبون لا يبادرون، ينصتون ولا يتكلمون، القابعين في بيوتهم بانتظار المخلص مع ادراكهم بأن خلاصهم يبدأ من داخل أنفسهم، الساخطين في كل حين على واقعهم من دون فعل أي شيء لتغييره، لو تكلم الموتى واشتكت الأشباح لما تعجبنا من ترداده " أنا شبيدي"، ولكنها كفر على ألسنة الأحياء حتى المعوقين المقعدين منهم، من يرددها يبتر يديه ورجليه ويسمل عينيه ويجذع أذنيه ويشل دماغه بنفسه راضياً مختاراً.

ومن ناحية أخرى ندرك حقيقة "كله من إيدي" ولا عذر لنا في تصنع العجز، والتظاهر بقلة الحيلة، نحن الجاني والضحية في نفس الوقت، حكمنا على أنفسنا بالعجز متذرعين بالقضاء والقدر والظروف القاهرة ولكننا ندرك في قرارة نفوسنا بأننا مسئولون كامل المسئولية عن عجزنا الاختياري، "انا شبيدي" نصفع بها الشطر الأيمن من عقولنا، فنقدم شطره الأيسر ليصفع بـ "كله من إيدي".

يدا كل منا ثنائية ديالكتيكية

يد تبني وأخرى تهدم

يد تعتدي وأخرى تمسح الدموع

يد تكتب وأخرى تمحو

يد تصافح وأخرى تطعن

يد تدافع عن الحق وأخرى تقهر وتظلم

والمحصلة هي صفر وصفر ولا أكثر من صفر، لذا فنحن وعلى الرغم من كل مظاهر التمدن والحداثة لا زلنا في خانة الصفر، ولولا فيض الرحمة الإلهية المتدفق نفطاً ومعادن ودجلة والفرات ونخلاً لهبطنا من الدرك الأسفل الذي نقبع فيه حالياً إلى أسفل سافلين.

كيف أصبحنا انا شبيدي.... كله من إيدي، لقد سولت لنا عقول وأيدي الغير لنكون مسيرين وتابعين ومقلدين ومسلوبي الإرادة، هؤلاء المتسلطون الذين فرضوا علينا الخنوع والتسليم بالقضاء والقدر ليسوا أغراباً ولا فاتحين ولا إمبرياليين بل هم حكامنا وشيوخ عشائرنا وبعض قادتنا الدينيين وحتى مثقفينا، وكانوا ولا يزالون إذا تمردنا على عبودية "أنا شبيدي" جلدونا بأسواطهم أو أفتوا بحرماننا من جنات الخلد أو غيبونا في سجونهم، وإذا رددنا "كله من إيدي" اتهمونا بالكفر والفسوق والعصيان، أو استخرجوا من بواطن نفوسنا المعذبة أشباح اوديبوس والكترا الفرويدية، لقد سدوا علينا المنافذ وحبسونا ضمن الدائرة المغلقة والضيقة لـ"أني شبيدي كله من إيدي".

العنصرية التي تصور الكردي بأنه لا يصلح إلا للحمالة في سوق الشورجة من صنع أيدينا الظالمة.

والتعصب الطائفي ما هو إلا ستار واه حاكته أيدينا لنخفي وراءه شلل عقولنا وضعف منطقنا وعدم ثقتنا بقدراتنا.

وما تعدي بعضنا على حقوق الغير بالسطو والخطف واستلاب الحقوق والاختلاس والرشوة إلا وسيلة العاجز الذي يستهين بما حباه الله به من طاقات فكرية وبدنية ولا يثق برحمته ولا بنعمه المسبغة بلا عد وحصر، فيتركها مهملة وراء ظهره مختاراً طريق الظلم والحرام المختصر، وقد عميت بصيرته عن حقيقة بأن ما يأكله في بطنه اليوم نار سيصلاها في الدنيا قبل الآخرة، وإن لم يكتوي هو بها أحرقت ذريته من بعده لأن في سعيه المريض اليوم وراء مصالحه الضيقة والآنية حرمان وخراب يدفع ثمنه الجميع اليوم وغداً.

خلاصنا في التنزه عن كل ما غرسته "أنا شبيدي" من أشواك وزقوم في نفوسنا أو نفوس غيرنا، علينا محو "أنا شبيدي" من نفوسنا وإلى الأبد، فالقضاء والقدر لا يفرضان علينا مسبقاً حياة شقاء أو نعيم، وحاشا الله عز وجل أن يفعل ذلك بعباده ثم يحاسبهم على أفعالهم، وفي الخليقة المحكومة بالسنن الإلهية أبواب متفرقة، منها ما يقودك إلى الفلاح، ومنها ما يتردى بك إلى الهلاك في الدنيا والعذاب في الآخرة، لكنك أنت لا غيرك تختار، سواء مارست حرية الاختيار أم تخليت عنها لأب أو رئيس عشيرة أو زعيم ديني أو سياسي، وأنت ولا أحد منهم تتحمل نتائج قراراتك، لذا عليك أن تنفي "انا شبيدي" من قاموس فكرك وسلوكك وإلى الأبد.

لقد حل عصر "كله من إيدي" ومن يتخلف عنه سيتخلف في كل شيء، عليك أن تنام وتفيق على هذا المبدأ، وقبل أن تخلد إلى النوم اسأل نفسك: هل أخلصت لهذا المبدأ اليوم؟ هل كرمت عقلك باستعماله كما علمك الذي علم آدم الأسماء كلها سبحانه وتعالى أم أهنته بتقليد الغير كالببغاء؟ هل كنت شجاعاً وجريئاً وصريحاً مع نفسك والآخرين وحتى من هم أشد قوة منك؟ هل لم تأخذك في قول الحق لومة لائم؟ هل تصديت للدفاع عن حقوقك وحقوق غيرك

بالحجة العقلية واللسان واليد لو تطلب الأمر؟ هل نصحت أخوتك ورفاقك بالكلمة والموعظة الحسنة؟ وإذا وجدت بأنك حدت عن "كله من إيدي" فحاسب نفسك حساباً عسيراً وعاهدها على أن تكون غداً مثالاً يقتدى به، أما إذا وجدت على يدك في آخر النهار أثر من دم بريء أو عرق أجير مستضعف أو دمعة امرأة مغتصبة فستسمع أصوات أبواب تغلق بسرعة، فسارع الليلة قبل الغد إلى توبة واستغفار وعمل صالح ما بقي من حياتك قبل أن يوصد آخر باب للرحمة في وجهك.

وآخر دعوانا الحمد لله على الأمانة الكبرى المتمثلة في "كله من إيدي" أو حرية الاختيار وعلى ما أعطى عقولنا وأيدينا من الهدي والحكمة لترتقي بالعلم والأخلاق والعمل الصالح حتى يتحقق قول العزيز الحكيم "يد الله فوق أيديهم".

اللهم هل بلغت فاشهد.

عندما زار عراق آل عظيم طبيباً نفسياً

العلة قديمة، استمكنت وتفشت ثم استفحلت قبل وبعد الاحتلال الذي أصاب في التشخيص وأخطأ في العلاج متعمداً، فظهر الخلل في القول والسلوك.

اسأل مجرباً ولا تسأل حكيماً هكذا تنصح الأمثال، لذا بدأنا بالمجربين، ولكن وصفات الأمم المتحدة لم تنفع، وحجام الجامعة العربية قبض هواء، وصدمات دول الجوار زادت الأوجاع.

فكان من البديهي أن يلجأ عراق آل عظيم لحكيم نفسي، ولنتخيل ما دار بينهما من حديث:

الطبيب النفسي (يتناول قلماً ودفتراً): ارجو أن تعرفني بنفسك أولاً.

عراق: اسمي عراق آل عظيم.

الطبيب النفسي: اسمك عراق ووالدك عظيم.

عراق: لا يا دكتور! عظيم هي كنيتي.

الطبيب النفسي: ومن هما والداك؟

عراق (يتلعثم وتبدو عليه الحيرة): أمة آل عربية

الطبيب النفسي: كيف تنطق اسم والدتك بفتح الهمزة أم ضمها.

عراق: وهل يوجد فرق؟

الطبيب النفسي: واسم والدك؟

عراق (بعد تردد): سايس.. (كلمة غير مفهومة).

الطبيب النفسي: سايس.. حسناً وكيف تصف علاقتك به؟

عراق: ليست جيدة، غالباً ما يضطهدني.

الطبيب النفسي: ووالدتك؟

عراق: والدتي امرأة أمية لا حول ولا قوة لها، وخاضعة تماماً لمشيئة والدي، إنه يعاملها كجارية.

أنا أحب والدتي جداً وأرثي لها في نفس الوقت لأنها ضعيفة وعاجزة وأخاف من والدي لأنه أجنبي وقاس ومتعجرف وعنصري ويستغلني ولا يحبني.

الطبيب النفسي: سنقوم بتمرين الآن. سأتلو عيك بعض الكلمات والمطلوب منك بعد سماع كل كلمة أن تذكر أول كلمة مرادفة لها ترد إلى ذهنك.

عراق: انا أعرف هذه الطريقة.

الطبيب النفسي: هل جربتها من قبل؟

عراق: قرأت عنها.

الطبيب النفسي: أحمر.

عراق: إرهاب.

الطبيب النفسي: أسود.

العراق: حِداد.

الطبيب النفسي: أخضر.

عراق: دولار.

الطبيب النفسي: أبيض.

عراق: كفن.

الطبيب النفسي (يتمتم مع نفسه).

عراق: ماذا قلت يا دكتور؟ لم أسمع ما قلت؟

الطبيب النفسي: لا شيء هام.

عراق: أنا قلق يا دكتور، ويبدو بأن حالتي متعسرة.

الطبيب النفسي: دع عنك القلق وعش حياتك.

عراق: هذا عنوان كتاب قرأته فلم أستفد منه شيئاً، وهل هنالك حياة بالمعنى الصحيح هنا لأعيشها؟

الطبيب النفسي: لماذا لا تفعل شيئاً لتغيير هذا الوضع؟

عراق: فعلت كل ما طلبوه مني، ثم قالوا لي اصبر فتحملت وكتمت ما في نفسي حتى وصلت حالتي إلى ما تراه.

الطبيب النفسي: هل أنت متزوج؟

عراق: لا.

الطبيب النفسي: هل فكرت بالزواج؟

عراق: نعم خطبت كردية فتمنعت، أما السنية فاشترطت أن تكون العصمة بيدها.

الطبيب النفسي: والشيعية؟

عراق: نهاني بعض الجيران عن التزوج بها فخفت منهم.

الطبيب النفسي: ما هذه الحلي التي ترتديها حول رقبتك؟

عراق (ممسكاً بالقلائد التي تطوق رقبته): هذا قرآن كريم وسيف ذي الفقار وهلال ونجمة داود وأيضاً خرزة زرقاء عن الحسد وهذا صليب وهنا كواكب وهذا طاووس ملك، هي رموز لديانات ومذاهب.

الطبيب النفسي: ولماذا ترتديها؟

عراق: حتى لا أتهم بالطائفية.

الطبيب النفسي: وهل تهتم كثيراً بما يقوله الناس عنك؟

عراق: السمعة مهمة.

الطبيب النفسي: هل تشعر بأنك مسير لا مخير في أمورك؟

عراق: دائماً. أنا حريص على التوافق. المشكلة أنهم لا يتفقون على أمر.

الطبيب النفسي: من هم هؤلاء؟

عراق: أصوات داخل رأسي.

الطبيب النفسي: وهل تسمع مثل هذه الأصوات في رأسك غالباً أم أحياناً؟

عراق: على الدوام وهذا يصيبني بالصداع لذلك اتناول الشاي مرات عديدة في اليوم، وكنت سأشارك في تسجيل رقم قياسي لكتاب جينيس للأرقام القياسية في شرب الشاي..

الطبيب النفسي: ماذا تقول لك هذه الأصوات في دماغك؟

عراق: إنها تخبرني بأشياء مخيفة ومقلقة؟

الطبيب النفسي: ما الذي يخيفك؟

عراق: كل شيء الماضي الأسود والحاضر الدموي والمستقبل المجهول.

الطبيب النفسي: وماذا فعلت للتعامل مع الخوف؟

عراق: الجلوس في البيت.

الطبيب النفسي: ما هو أشد ما تخافه؟

عراق: أن تتفكك عائلتي وحينئذ سأموت.

الطبيب النفسي: سأكتب لك وصفة بأدوية للكآبة المزمنة والشيزوفرانيا والبارانويا وعليك أن تراجعني بانتظام مرة في الاسبوع لكي نواصل العلاج.

7 اذار 2014م

يذبحني العراق يومياً!

ثلث عمري قضيته في العراق، والبقية في بلاد العرب والإفرنج طالباً وموظفاً وهارباً من طغيان وبطش الحكام، أكثر من مرة سألوني: هل أنت عراقي بحق؟ وكنت أجيبهم بسؤال: لم تستغربون؟ فيأتي ردهم: ليس فيك من حدة طباع العراقيين، لقد اقترنت صورة العراقي في أذهان العرب بالمزاج الناري وسرعة الغضب والبطش والرعونة وغيرها من الصفات الدالة على ميله للعنف، كان أقوى دليل يسوقونه على هذا التوصيف السلبي مجزرة قصر الرحاب التي راح ضحيتها أفراد العائلة المالكة الهاشمية في أواسط القرن الماضي، أما الآن وبعد ذيوع أخبار القتل الجماعي للمدنيين العزل بالتفجير والإعدام والذبح فمن يجرأ على مطالبتهم ببرهان؟

منذ ولادتي والعراق يذبحني، مرات ومرات كل عام، لم أتم عاماً من عمري عندما تآمرت زوجة أبي لأفطم قبل الأوان، وقبل أن اتعلم المشي ابتلعت قطعة معدن دستها لي خادمتها فكدت أموت خنقاً، ولا أتذكر من بيئة طفولتي سوى الرعب، في النهار رعب من الأقارب الحاقدين عليك لحد القتل، وفي الليل رعب من المخلوقات الخفية التي تتربص بك وراء ظلال نور الفانوس، لكي يستنقذني والدي من رعب الريف قذف بي إلى رعب مدرسة عادل، حيث يعذب الطلاب تحت ستار التعليم والتأديب، ولا أتذكر من تلك السنة العجفاء سوى الرعب من خيزرانة زوج المديرة وانتحار ابنتها، ونزولاً عند توسلات والدتي أعادني أبي إلى مدينتنا الصغيرة في الجنوب، وكانت سكين الذبح العراقي بانتظاري، ففي صيف ذلك العام حدث انقلاب الرابع عشر من تموز، وكما استبدلوا الملكية بالجمهورية تحول أبي من شيخ قبيلة إلى اقطاعي، ودفعت أنا الثمن، فقد كان يحلو للمناضل الشيوعي الكبير "الجميلي"، المعلم في مدرستي الابتدائية، وضع حبل السحل في رقبتي اثناء الاصطفاف الصباحي ليعلن للجميع من معلمين وطلاب بأن مصير الإقطاعيين وأولادهم السحل، كنت في العاشرة من عمري، وكان العراق الشيوعي يذبحني كل يوم بعد أن

ذبحني العراق الملكي مرات، وما أن انقضى العام الدراسي حتى شد والدي الرحال إلى بغداد، هروباً من شماتة أفراد قبيلته، الذين كانوا بالأمس يقبلون يده وأصبحوا يتظاهرون أمام بيته منادين بسحل جميع الإقطاعيين.

في بغداد كان الغول الحضري (ولا أقصد الحضاري) بانتظاري ليذبحني هو الآخر كل يوم بالسخرية من لهجتي الجنوبية وسلوكي المعيدي، وإذا كان أولاد الحضر البغداديين بتلك القسوة فلا عجب أن يكون أولادهم اليوم في مقدمة الذباحين ومناصريهم، تمقت المدرسة التي لا صاحب لك فيها ولا تسمع فيها سوى كلمات ساخرة مغموسة بالسم لم يعلق في ذهني منها سوى "جا" بالجيم المثقلة كما ينطقها أهل الجنوب، ولم يكن شوكت أو بهجت أو نصرت البغدادي، الذي لا زالت أمه ترطن بالتركية حتى السبعينات من القرن الماضي مع "باجياتها"، يدري بأن لغة أهل جنوب العراق (وهي بالفعل لغة لا مجرد لهجة) هي الأثرى من بين كل لهجات العرب المعاصرين بالكلمات الفصحى التي قد تستعصي معانيها حتى على المختصين باللغة العربية، كما اثبت ذلك في كتابي عن مدينة الشامية.

في بغداد المسكونة بالشياطين، كما يستدل من معنى الكلمة باللغة الفارسية، لم أجد إنساناً أسكن إليه فلجأت إلى الكتب، وكانت متنفسي الوحيد في السجن العراقي الكبير، وبفضلها تعلمت جانباً من مهارات الكتابة، ولكن المدرس الذي عودني على امتداح كتاباتي الإنشائية والتنبؤ لي بمستقبل زاهر في عالم الكتابة ذبحني في أحد الأيام عندما أعطى زميلاً لي درجة أعلى في درس الإنشاء، وجلست استمع مدهوشاً ومحزوناً لزميلي "المتفوق" وهو يلقي إنشاءه الذي سرقه كلمة بكلمة من كتاب لجبران خليل جبران، وبالطبع سكت لأن في السكوت نجاة من المدرس الجاهل وزميلي البغدادي اللص ورفاقه.

بعد احتدام الصراعات السياسية في العراق بين الشيوعيين والقوميين أرسلني أبي إلى لبنان لإكمال دراستي الجامعية بعيداً

عن مهاترات السياسة، وما أدراه بأن سكين الذبح العراقية ورائي وكأن في عنقي مغناطيس يجتذبها، فما أن يدرك أخوتنا العرب بأنك عراقي مسالم حتى يبوحون بما في مكنون أنفسهم من حقد على العراق، فتأتيك سكاكينهم لتذبحك بكلمات: "ما كو أوامر!" التي يحلو للفلسطينيين التندر بها على تقصير القطعات العراقية التي شاركت في حرب تقسيم فلسطين في 1948، ومن ثم يسمعونك رواياتهم عن الجنود العراقيين الذين "فعلوها" بالحمير وحتى جثث الفلسطينيات، أما الأردني معاوية فمستاء جداً من العراقيين لأن زميله الطالب في جامعة بغداد ترجاه أن لا يضع اسمه على الرسائل التي يبعثها له بالبريد، وما أكثر شكاوى إخوتنا الكويتيين من العراقيين الذين يسمعونهم أقذع الشتائم أثناء سفرهم براً عبر الأراضي العراقية، ويتساءلون: ماذا فعل الكويتيون لكم لتشوهوا سياراتهم بمفكات البراغي والمفاتيح؟ فبماذا أجيبهم وكل كلمة سكين ذبح عراقي ولكن بأيدي غير عراقية؟ ومن لم يشتكي من طيش العراقيين سخر من محكمتهم الثورية ورئيسها المهرج المهداوي.

لا فرار من سكاكين الذبح العراقية، فما دامت سفارة عراقية موجودة عليك أن تتحسس عنقك كل يوم، وما كذب أو بالغ من وصف السفارة العراقية في بيروت آبان العهد البعثي بأن الداخل فيها مفقود والخارج منها مولود، فلعلها الأولى من السفارات العراقية التي اشتهرت بـ"صندقة" المعارضين وإرسالهم إلى العراق مع الأمتعة، وحتى المستقلين أمثالي كانت تدفعهم الخشية على رقابهم إلى إبلاغ زملائهم بموعد مراجعتهم للسفارة، مع الرجاء بمراجعة الشرطة اللبنانية في حالة عدم الخروج من مبنى السفارة في نفس اليوم، وأتذكر جيداً حصار الشرطة اللبنانية للسفارة لإجبارها على إخلاء أحد العراقيين الذي أبلغت زوجته بأنه دخل السفارة ولم يخرج، وفي إحدى السنين رمى" الرئيس الأب المؤمن" أحمد البكر أنشوطته داخل لبنان لتلتف حول أعناق جميع العراقيين المتواجدين فيها للسياحة أو الدراسة ليجبرهم على مغادرة لبنان

احتجاجاً على المعاملة غير اللائقة التي تعرض لها نجله "المحترم" السكران في أحد ملاهي بيروت على يد عاهرة وقوادها.

عند بداية السبعينات سأمت الجنسية العراقية المسلطة على رقبتي مثل سيف البغي لدرجة البحث عن جنسية لبنانية، وقد هداني صديق لبناني إلى محامي، تعهد لي بتدبير جنسية مقابل إثنى عشرة ألف ليرة، ولو كان المبلغ بحوزتي لما ترددت في شرائها، ومن ثم جاء وقت الخدمة العسكرية الإلزامية، فقد أصدر البعثيون قراراً يلزم خريجي الجامعات بقضاء مدة الخدمة مباشرة بعد حصولهم على الشهادة الجامعية الأولية، ولم يشفع لي قبولي لدراسة الماجستير، وللخدمة العسكرية في العراق هدفان: سفك دماء العراقيين وضحاياهم وإهدار كرامتهم، وأتى الخلاص المؤقت بعد ستة أشهر من جحيم العسكرية عند صدور قرار جديد يسمح بدفع البدل النقدي.

كل السكاكين تصدأ ما عدا سكاكين الذبح العراقية، لأنها مصنوعة في جهنم، وتحمل ختم إبليس، وصرت أهرب منها بإطالة مدة الدراسة، فبعد الماجستير طمحت إلى الدكتوراة، ولأن ذوي القربى هم أول الذباحين منعوا عني مستحقاتي من دخل أرضي الزراعية فاضطررت لبيع سجادات إيرانية في بيتنا لتمويل دراستي، وكان من الطبيعي أن أخطط للدراسة في أمريكا بعد قضاء ست سنوات من الدراسة بالجامعة الأمريكية في لبنان، ولكن الزوابع البعثية تأتي بما لا تشتهي سفينتي دائماً، ولم تكن تلك الزوبعة سوى خصام مؤقت بين البعثيين المتسلطين على رقاب العراقيين وأسيادهم الأمريكان، وفي حينها قرر البعثيون منع العراقيين من الدراسة في أمريكا فاضطررت مرغماً لمواصلة دراستي في جامعة بريطانية.

بعد انتهاء دراستي عدت لموطني لأجد سبعة ملايين عراقي منتمين لحزب الذبح والسلخ، وهم بدرجات مختلفة: مؤيد ذباح ونصير ذباح وعضو ذباح وعضو فرقة ذباح وصولاً إلى رئيس مجلس قيادة الذباحين، وأشد ما يقض مضاجعهم أن ترفض الانتماء لحزب الذباحين، وفي كل يوم كنت أخرج للعمل في الإدارة الحكومية أدعوا

الله أن يجعل من أمام البعثيين سداً ومن خلفهم سداً حتى لا يدركون ما بنفسي من حقد عليهم.

منذ الأيام الأولى ناصبني ضابط الأمن في العمل العداء، والذباحون أمثاله كسلفهم الشيطاني الحجاج بارعون في التعرف على الرؤوس اليانعة التي حان قطافها بالذبح، وكانت عنقي تشمخ فوق رؤوسهم المرهقة بذل العبودية للطاغية، هذا "الخفاجي" كافأه الطاغية فيما بعد بتعيينه مديراً عاماً لهيئة المواصفات والمقاييس، وقد اخبرني زميل لي ثقة بأن هذا "الخفاجي" تباهى أمامه وآخرين بقتله لامرأة إيرانية عجوز مقعدة تخلفت عن أهلها في قصر شيرين أثناء احتلال القوات العراقية، فإذا كان هذا المجرم الخنيث لا يزال حياً يرزق في العراق فتباً للعراق الذباح!* تكاتف هذا المجرم ورفاقه المديرين لتحويل ساعات العمل إلى جحيم، وكنت وأهلي أنتظر زيارة من الأمن العامة في أي حين لتغيبني. استعانوا بي لدراسة أوضاع أمانة العاصمة فاطلعت هناك عن كثب على معاناة العمال والموظفين الصغار على أيدي الذباحين البعثيين، فكتبت تقريراً استشارياً ناقداً لأساليب العمل في الأمانة في الوقت نفسه الذي كان الطاغية صدام يقلد أمين العاصمة وسام الرافدين لبراعته في الإدارة، آنذاك أدركت بأن سكين الذباح الفعلية قد أصبحت قاب قوسين أو أدنى من عنقي، ثلاث سنوات وشهور فقط من العمل في العراق، تشرفت فيها برفض الانتماء لحزب الذباحين والامتناع عن التصويت في انتخاباته الصورية وتمزيق استمارة التطوع للقتال في حربه الباغية والكافرة ضد إيران الإسلامية، اغتنمت فرصة الإجازة السنوية لأهرب من العراق، وفي جيبي ألف دولار فقط وفي قلبي إيمان بأن الله سيجعل لي مخرجاً ويرزقني من حيث لا أحتسب.

بعد محطة قصيرة في السعودية مع بعض أفراد عائلة زوجتي، وهم من السنة، حيث تبين لي بأنهم يحبون صدام حتى العبادة نكاية بي فقط، حملت حقائبي ورحلت إلى مصر، هناك وجدت عملاً براتب مجز في شركة استشارية عربية كبرى، ولكنهم اشترطوا علي تدبير رخصة الإقامة، وهو ضرب من المستحيل بسبب الحملات السياسية

والإعلامية العراقية ضد مصر بعد توقيعها اتفاق السلام مع الكيان الصهيوني، ألم أقل لكم بأن السكين العراقية لم تفارقني طيلة حياتي؟ اضطررت لمغادرة مصر والتوجه إلى السعودية للعمل في

معهد للإدارة بالرياض، فوجدت أن ثلة من العراقيين قد سبقتني للعمل فيه، وهم كلهم على دين الذبح البعثي، ومن أخس البشر قاطبة، بادرني أحدهم، وهو "تميمي" بعدائه فكانت أول كلماته التي خاطبني بها بعد التعارف: "إمامكم الحسن مزواج!"، والآخر "فلاحي" يتندر عليه الجميع لاحتفاظه بسروال عشيقته الأمريكي في حقيبته، كما روت زوجته للجميع، وثالثهم "مصلاوي" أخبث من الخبث، وكان الوسيط بين سفارة صدام المدججة بالمخابرات وبين العراقيين في المعهد، وأتذكر سعيه المحموم لجمع الحلي من العراقيين من أجل مجزرة صدام ضد إيران الإسلامية، وكنت الوحيد الذي لم يتجرأ حتى على مفاتحتي بطلب التبرع، لم أفاجأ عندما استدعتني السلطات السعودية لاستلام بلاغاً من الحكومة العراقية يقضي بضرورة عودتي للعراق ويتوعدني بأشد العقوبات في حالة الامتناع عن ذلك، وكان من الطبيعي أن يصدر الأمر من السلطات العراقية بمنع تجديد جواز سفري، فاضطررت إلى "تجديده" لدى المعارضة العراقية في سوريا.

انقضت مدة جواز سفري العراقي بعد ست سنوت من العمل في السعودية فاضطررت إلى مغادرتها في 1988 إلى سوريا، وفي كل يوم تحياه بدون جواز سفر يذبحك القلق من الصباح حتى المساء، ويتجدد الذبح مع صباح كل يوم، ويكون الألم مضاعفاً عندما لا تجد عملاً تسترزق منه فتضطر للاقتراض من الغرباء لأن أخوتك وأهلك الذباحين في العراق نسوك أو تناسوك، وتصبح المعاناة غير محتملة وأنت ترى بعينيك أولادك يكبرون في الغربة فلا ناصر ولا معين ولا مستقبل ينتظرهم، فهل ظلمت العراق باتهامه بذبحي؟

بعد ثمان سنوات من عذاب الغربة والبطالة ومضايقة مخابراتها في سوريا حان وقت الهجرة إلى كندا، لا حباً في جحيمها الثلجي بل من أجل تعليم أولادي، ولم تنقض سوى أشهر حتى يأست من الحصول على عمل فيها، على الرغم من شهاداتي العليا وإجادتي

للغة الإنكليزية وكتبي وبحوثي الكثيرة، لأن الكنديين عنصريون، تتكاتف فيه كل جماعة قومية أو عنصرية، ما عدا العراقيون المولعون بذبح بعضهم البعض، وإذا كنتم لا تصدقوني فاسألوا عن ذو الفقار العطية، وهو ابن ابن عم لي لجأ إلى كندا مع عائلته الصغيرة، وعمل سائقاً للأجرة، ولسبب تافه حز عراقي معمم وأولاده (وهم من الشيعة أيضاً) عنق ذو الفقار في سيارة الأجرة، ألم أقل لكم بأن مهنة العراقيين، أينما حلوا، الذبح؟

تذكرني الحياة في الغربة القسرية لأكثر من ربع قرن بقصة ذلك الرجل الفرنسي الصالح، الذي قطع رأسه ملك جائر، ولكن الرجل، حسب الروايات الفرنسية، وبقدرة ربانية حمل رأسه بيديه وصار يدور في أرجاء مدينة باريس وضواحيها حتى استقر عند المكان المعروف حالياً بمونمارتر، وفي ذلك الموقع دفنه الناس وشيدوا على قبره كنيسة ضخمة، لا تزال قائمة حتى يومنا هذا، أنا مثل هذا الرجل مقطوع الرأس بفعل السكاكين العراقية اليومية، أحمل رأسي بيدي، ولكني لم أجد بعد مستقراً لجسدي ورأسي، وحتى بعد سقوط الطاغية ونظامه لا يزال العراق يذبحني كل يوم وكل ساعة.

كلما شاهدت أو قرأت خبراً عن العراق لعنت الذين يذبحون العراقيين بالقتل والتهجير والإرهاب والتسلط عليهم ونهب ثرواتهم ومنع الخدمات عنهم والسكوت على ذبحهم، وبعد أن لعنت سبعة ملايين عراقي انتموا لحزب الذباحين البعثي في السابق، ولعنت القتلة من الإرهابيين والتكفيريين، ولعنت أعضاء الحكومة والبرلمان ورجال الدين المشعوذين والإدارات المحلية والموظفين المتسلطين والناهبين للمال العام والمتحالفين سراً مع الإرهابيين ولعنت أتباعهم لا أدري إن بقي أحد من العراقيين لم تشمله لعناتي.

لا يقول لي أحد بأن العراق بريء، وبأن المسئولين عن ذبحي هم ثلة من أبناءه المنحرفين، العراق كله حرمني من تكسب رزقي، والعراق برمته نفاني من أرضه التي من حقي العيش فيها على الرغم من اخلاصي له وللقيم السامية، والعراق بأجمعه منعني وأهلي من حياة اجتماعية سوية فأصبحت مثل قابيل المطرود

بالحكم الآلهي أو مثل السامري المحكوم باللامساس، ولكن من دون ذنب اقترفته فقد أخلصت الأخوة على عكس قابيل ولم أعبد الأصنام البشرية أو غيرها على خلاف السامري.

أيها العراق الذباح لأبنائه الطيبين البررة أرى بأن سكاكينك التي ذبحتنا بها قد اجتمعت وانصهرت في سكين عظيم، فهل ستحز عنقك بيدك؟ لديك فرصة أخيرة، لتثبت بأنك قادر على التمييز بين الطيب والخبيث فتختار الأول وتنبذ الثاني، وإلا فابشر بالتقسيم والهلاك.

16 تشرين الأول 2007م

--

* علمت من قريبة عملت تحت إمرة الخفاجي بأنه قتل عند باب بيته بأيدي مجهولين.

روابط الأخوة في العراق بين الصورة المثالية والواقع المفجع

نماذج الرابطة الأخوية نجدها غالباً في التراث المحكي من روايات وامثلة حكمية ونادراً في حالات واقعية، واكثرها من طرف واحد لا طرفين. الحكاية التالية المتداولة بين وعاظ الانترنت تصف النموذج المثالي أنقلها لكم كما وردتني:

(يحكى أن أخوين يعيشان في مزرعة، وكان أحدهما متزوجاً ولديه عائلة كبيرة والثاني أعزب، وكانا يتقاسمان كل شيء بالتساوي الإنتاج والربح . وفي أحد الأيام حدث الأخ الأعزب نفسه: إن تقاسمنا أنا وأخي للإنتاج والأرباح ليس عدلاً فأنا بمفردي واحتياجاتي بسيطة، فكان يأخذ كل ليلة من مخزنه كيساً من الحبوب ويزحف به عبر الحقل من بين منازلهم ويفرغ الكيس في مخزن أخيه، وفي نفس الوقت قال الأخ المتزوج لنفسه: ليس عدلاً أن نتقاسم الإنتاج والأرباح سوياً، فأنا متزوج ولي زوجة وأطفال يرعونني في المستقبل، وأخي وحيد لا أحد يهتم بمستقبله، فصار يحمل كل ليلة كيساً من الحبوب ويفرغه في مخزن أخيه. وظل الأخوان لسنين طويلة لأن ما عندهم من حبوب لم يكن ينفذ أو يتناقص أبدا، وفي ليلة مظلمة قام كل منهما بتفقد مخزنه وفجأة ظهر لهما ما كان يحدث، فأسقطا أكياسهما وعانق كل منهما الآخر.)

ما اسعدهما واتعس حظي فأنا لم اذق مثلهما طعم الأخوة الحقة، إذ لم ألق من أخوتي سوى البغضاء والحسد والنفور والجحود، ابغضني بعضهم لأني وعلى النقيض منهم اخترت طريق الفضيلة لا الرذيلة، وحسدني آخرون على القليل الذي حصلته بالكد والتعب، ونفروا مني لأنني رفضت ذل العيش تحت حكم الطاغية، ومن مددت يدي له بالعون من دون منٍّ أو أذى كافأني بالجحود والانكار.

سواءً كانت الحكاية من نسج الخيال أم من الواقع فمن المؤكد بانها لا تنطبق كثيراً على الحالة في العراق، وليس مقبولاً الاستدلال من تجربتي الشخصية، فهي حالة واحدة لا عينة دراسية ممثلة للمجتمع العراقي، وإن كانت مثيلاتها كثر، ولكني سأكتفي بذكر حالة اخرى، وهي وإن حدثت قبل أكثر من نصف قرن إلا أنها تعكس أعرافاً اجتماعية ما زالت مؤثرة في فكر وسلوك شريحة واسعة من العراقيين.

اقدم أحد أفراد عشيرة معروفة في جنوب العراق على قتل أخيه رئيس القبيلة طمعاً بالمشيخة والرئاسة، لم يكن حدثاً غير مسبوق، ويتناقل مؤرخون ورواة اسماء رؤساء قبائل أو مشيخات قبلية استحوذوا على الرئاسة أو المشيخة بقتل اخوانهم أو أقاربهم، وعلى سبيل المثال أقدم الشيخ مبارك جد السلالة الحاكمة في الكويت قبل أكثر من قرن على قتل اخيه الشيخ وأخ ثان ليحوز على المشيخة، ولكن المختلف في حالة الشيخ العراقي الذي قتل أخاه هو ما كتبه قريب لهما ونشره في كتاب تبريراً لهذا الفعل (فريق آل المزهر آل فرعون. القضاء العشائري. بغداد: مطبعة النجاح، 1941، ص 62):

[ولكن هذا الرجل الذي قتل ابن عمه أو أخاه إذا أجلي فهو يحترم من مراحل جلائه للمنزلة الرفيعة التي كان يتمتع بها، كما أنه لا ينظر بنظر المجرم العادي بل بنظر الرجل الطموح، فتراه بين ظهراني القبيلة التي اتخذها مركزاً لسكناه من جلائه هذا إذا دخل عليهم أو حل في نواديهم يقومون له إجلالاً ويحترمونه احتراماً ما يحترم الرجل الشجاع لطموحه في الزعامة وحبه للسيطرة وشغفه بالنفوذ، وإذا وجد رجل يتصف بهذه الصفات يجب أن يحترم، فإنه إنما أقدم على القتل لا لأمر دنيء، بل لأمر خطير بعيد عن الدناءة، فيجب على القبيلة التي يحل بساحتها أن تحترمه]

يؤكد المؤلف وهو الخبير بالقضاء والعرف العشائري أن الحكم الفصل في قضية قتل الأخ لأخيه هو لعرف القبيلة لا شرع الله، وجزاء قاتل أخيه طمعاً بالرئاسة هو الجلاء فقط، كما ينبغي على الجميع احترام قاتل أخيه، فهو رجل طموح، ويستحق منا الوقوف له اجلالاً، لأنه أثبت شجاعته في قتله لأخيه، وبرهن على طموحه للزعامة، وما حبه للسيطرة وشغفه بالنفوذ إلا فضائل يحمد عليها، وهو ابعد ما يكون عن الدناءة.

هذا هو شرع القبيلة وقانون القبليين، وهو مخالف لشرع الله، بل بالضد منه تماماً، إذ يقول الله في محكم كتابه الكريم:

"وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ". (المائدة: 27-31)

الله في قرآنه المجيد في صف ابن آدم القتيل التقي المظلوم، أما شرع القبليين العراقيين فهو في الجانب الآخر، يناصر ابن آدم القاتل الظالم الخاسر، مع فارق مهم، هو أن ابن آدم القاتل ندم على قتل أخيه، أما العراقي قاتل أخيه فهو غير نادم، بل ينتظر من الذين يحل بينهم التقدير والاجلال والاحترام.

في العراق يعترف الدستور بالقبلية، ويستغلها الساسة وبعض رجال الدين، ويحتكم لها الأفراد في حل نزاعاتهم وقضاياهم، لذا لا يستاء أحدكم من إساءات أخوته، ولا يرهق علماء الاجتماع أنفسهم بالبحث عن اسباب استسهال الإرهابيين من العراقيين وغيرهم لسفك دماء أخوتهم في الوطن والدين وحتى القبيلة فهم كلهم قبليون أو متبعون لأعراف القبيلة، وقد بلغ بهم وبأسلافهم التعلق بهذه الأعراف حد تحوير شرع الله ليجيز لهم قتل الأبرياء من أجل

السلطة والتسلط، ولا عجب أن تمسك حاكم بالسلطة وكأنها العروة الوثقى لأن القوة يعلى ولا يعلى عليها في ناموس القبلية، ولا غرابة أن ارتفعت مكانة المختلسين والمرتشين بين القبليين لأن الثروة غاية عظمى عندهم تبرر لهم كل الوسائل.

لا دين مع القبلية لأنها دين القبليين الذين يحتكمون لشرعها، ولا مواطنة مع القبلية لأنها محتكرة للولاءات، ولا أخوة حقة مع القبلية لأن أعرافها تضحي بها في سبيل شهوة الملك والقوة والسيطرة، ولا مستقبل مع القبلية لأنها رمال متحركة، والحركة الوحيدة فيها هي نحو الأسفل والموت اختناقاً، ولنتذكر بأن الله وصف آبن آدم القاتل بالخاسر، وهو الوصف المنطبق تماماً على العراق في الماضي والحاضر.

اللهم إني أبرء إليك من القبيلة وأعرافها ومن أخوة القبليين ومن وطن يعترف دستوره ونظامه السياسي ورجال دينه بالقبلية.

30 أيلول 2012م

أيها العراقيون قولوا الحق على أنفسكم

أفقت بالأمس مذعوراً على رنين الهاتف، نهضت مسرعاً من فراش المرض، أبلع ريقي لعل قلبي الذي ارتفع إلى حلقي ينحدر معه، صوت أختي من العراق يصارع ضوضاء الأثير:

> " اخونا (غير الشقيق) أستولى على أرضنا بعد زراعتها وهدد وكيلي الزراعي بالضرب لو رأه مرة أخرى، حتى السماد استولى عليه."

تتصاعد دماء الغضب إلى رأسي المحموم، فحتى من قبل وفاة والدي يرحمه الله لم أجني من أرضي الزراعية سوى الفتات في السنين التي أثرى فيها اقاربي القبليون في الشامية، وهم يسبحون بحمد صدام حسين، فيما كنت أتلظى من العوز والديون المتراكمة في منفاي بدمشق، في زمن الثمانينات التي لم يجد مثلي من المغضوب عليهم من نظام الجور العراقي غير بلاد الأمويين ملجئاً وملاذاً، وفي الوقت الذي كان معظم المتنعمين اليوم بغنائم النصر الأمريكي في العراق يتقلبون في البلاد بجوازاتهم العراقية كنت حبيس أبواب الشام بعد انتهاء صلاحية جواز سفري ورفض السفارات العراقية تجديده، وفي الزمن الذي كان فيه صدام حسين وشركاؤه في جريمة الحرب على إيران وابن لادن والزرقاوي واعوانهما حلفاء محبين ومخلصين لأمريكا كنت ـ ولا أزال ما استطعت- أحب في الله فقط،...

صوتها يقاطع أفكاري:

" بالأمس وقبل سقوط النظام كان الأخ الثاني (غير الشقيق أيضاً) يهددني كلما طالبت بحقوقك في الأرض بإخبار جلاوزة صدام بإنك عضو في حزب الدعوة."

لم أنتمي يوماً لحزب، ولكن الله يشهد باني اقتطعت العشر مما ادخرت في الأيام الحالكة -عندما كنت أعمل قبل نفاذ جواز سفري- لأيام البطالة القسرية الأشد حلكة متبرعاً به للذين عارضوا نظام البعث التعسفي، ومن ثم قضيت إثنتي عشرة سنة بدون عمل، لم أستلم فيها درهماً واحداً من حقوقي، التي هضمها القريب والبعيد، وحتى في أسوء الأوقات لم أندم على مشاركتي الرمزية تلك في النضال ضد صدام حسين.

قد يرى البعض بأن طرحي لمشكلة خاصة تتعلق بحقوق شخصية إضاعة للوقت وصرف للأنظار عن الأمور الجلل والمشاكل الصعبة التي تواجه العراقيين اليوم، وتقض مضاجعهم، وعلى رأسها بداهة الإرهاب الطائفي، ولا شك بأن المسائل العامة تتقدم في الأهمية على الخاصة، وبالذات في أيام المحن والشدائد، وإن كان مفهوم العدالة يقتضي إعطاء كل القضايا الاهتمام الكافي لإحقاق العدل، ففي حديث للإمام علي بن أبي طالب، توعد فيه بالاقتصاص من قتلة إنسان، ولو كان المشتركون في الجريرة بقية الخلق البشري كلهم، أي لو اشترك كل الناس في إزهاق روح بريئة لتوجب قتلهم جميعاً، وهذا هو الفهم الإمامي الصائب للآية القرآنية الكريمة، التي تساوي بين قتل إنسان مؤمن وقتل الناس جميعاً، وتجمع كافة الشرائع السماوية والقوانين الوضعية على مبدأ معاقبة القاتل، سوى إن البعض منها قد ألغى عقوبة الإعدام، ونستنتج من ذلك بأن الظلامة الشخصية قد تسري عقوبتها على المجموعة أو المجتمع أو حتى البشرية جمعاء، وقد يتساءل البعض: هل من العدل قتل مليار من البشر لو تواطئوا على إهراق دم فرد واحد ظلماً وجوراً؟ والجواب هو: لو ثبت ذنبهم بالأدلة القاطعة لاستوجب ايقاع العقوبة عليهم، لأن ذلك أهون من الشرور المستطيرة، التي ستنتج حتماً من تركهم دون عقاب، لسبب جوهري لا يجوز الاستهانة به ألا وهو مخالفة الشرع أو القانون الذي وضع لديمومة الحياة، وهو ما تؤكده الآية الكريمة: (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب)، فإذا تركت هذه المجموعة القاتلة، كثرت أم قلت، دون جزاء فستضعف هيبة القانون، وعلى الأغلب سيتمادون هم وغيرهم في القتل، ولا يستبعد حتى

فناء الجنس البشري على أيديهم، القتل العمد إذن جريمة شنعاء سواء كان ضحيته واحداً أو إبادة جماعية لألف، وفي كلتا الحالتين يقتص به من المذنب إن كان واحداً أم ألفاً، ولدينا مثال على ضرورة ذلك من تاريخنا القريب، فالمعجبون بحكم عبد الكريم قاسم يتغنون بحلمه المتمثل في عفوه عن المتآمرين في محاولة اغتياله، وبالضد من ذلك نقول لو اقتص منهم لما نكب العراقيين بخمس وثلاثين سنة من الحكم البعثي وما جره علينا من ويلات.

وأغرب ما سمعته من مسئول عراقي قوله بأنه وجماعته سيتأسون بهابيل الذي رفض شهر سلاحه في وجه أخيه قابيل فانتهى مقتولاً، وفاته معرفة الفرق بين شهر السلاح بنية القتال والدفاع عن النفس، فالأول فعل عدواني والثاني رد فعل مشروع، والقرآن الكريم لم يقل بأن هابيل لم يدافع عن نفسه، وحتى لو لم يفعل ذلك فلا يجوز الاقتداء به، لأن القاعدة الشرعية في الإسلام وغيره تكفل حق الدفاع عن النفس، إلى حد قتل المعتدي، بل إن ترك المعتدي دون قصاص مدعاة للفساد، وعلى المجتمع واجب الاقتصاص للضحايا، حتى الأموات منهم، وعندما أدرك المشرعون الأمريكيون بأن أحد أسباب تنامي معدلات الجرائم العنيفة في بلادهم تعطيل عقوبة الإعدام، أعادوا العمل بها.

ومن المؤسف بأن المؤسسات السياسية والقضائية في الدول الإسلامية وعبر التاريخ مفرطة في الحقوق، بل أنها تكاد تكون الأكثر تهاوناً في حفظها، كما أن كثيراً ما تواطأت المؤسسات القضائية مع النظم السياسية الجائرة في حرمان المستضعفين منها وإصدار الأحكام الجائرة، وكانت النظم الإدارية فيها أدوات طيعة لسلب الحقوق واضطهاد الرعية، مخالفة في ذلك أهم المباديء الإسلامية التي أنزلت لتنظيم حياة الأفراد والجماعات، وفي الوقت نفسه تمسك القبليون العرب بأعرافهم القبلية الجائرة، المنحازة للسادة والأقوياء، فالقاتل من سادة القبيلة تنفذ به عقوبة مخففة فيما يقتل ويشرد المستضعف من أتباعه لأتفه الجرائر، والويل له لو خرج عن طاعة رؤساءه، وكم رئيس قبيلة أعطى لنفسه الحق في الاستيلاء

على أراضي المستضعفين من أهله وجيراه غير عابئ بشريعة إلهية او قانون، وهكذا انحرفت المجتمعات والدول الإسلامية ومنذ الأمويين عن تطبيق مبادئ المساواة والعدل ونزاهة القضاء وحفظ الحقوق، وورثت التراب أعظم قاعدة حضارية إسلامية، وهي سيادة القانون، والتي يعتبرها المعاصرون الخاصية الأساسية للنظم والمجتمعات المتحضرة.

تعكف لجنة صياغة الدستور هذه الأيام على إعداده، ومع تمنياتنا لها باكتمال النصاب والتوفيق نذكر بأن احتواء الدستور على نصوص تحفظ الحقوق مطلب رئيسي وشرط لازم، لكنها وحدها غير كافية، لأن المجتمع نفسه قد تطبع على أن حقوق الأقوياء هم وحدهم محفوظة، لذا ترى المستضعف يائساً من تحصيل حقوقه، فلا يكترث بالمطالبة بها، ولا يزال يردد القصة المعروفة حول القاضي العثماني المرتشي الذي منع الشاكي الضعيف من الدفاع عن حقوقه مادحاً القوي الذي رشاه بليرات ذهبية بأن كلامه "طق ليرات"**، لذا ينبغي تعزيز القضاء النزيه بخدمات استشارية حقوقية مجانية للمواطنين، والنص على ذلك في الدستور، وتفعيل هذا الحق من خلال إنشاء جهاز حقوقي مستقل يتولى استقبال المواطنين، الذين لا يستطيعون دفع تكاليف محامي للدفاع عن حقوقهم، ودراسة قضاياهم ومساعدتهم في إيصالها إلى الجهات المختصة والمحاكم ومتابعتها حتى اكتمالها، والترافع عنهم أمام القضاء إن استدعى الأمر، وتقديم هذه الخدمات بأعلى مستويات الجودة وبدون مقابل،** واتقدم بهذا المقترح إلى لجنة صياغة الدستور الموقرة وضعاً قدراتي وخبراتي التنظيمية المتواضعة تحت تصرفها.

وللمراجع والقادة الدينيين والنخب الاجتماعية والثقافية دور هام في إحداث التغيير الاجتماعي والسلوكي، لكي يتحول الأفراد من مرحلة الامتثال للدستور والقوانين في احترام الحقوق درءاً للعقاب إلى الاعتقاد بضرورتها وفائدتها كقواعد للسلوك الإسلامي والحضاري، التي يفتخرون ويحرصون على تطبيقها طوعاً، وعلى

الدعاة التوجه إلى المجتمعات المحلية لإحداث هذا التغيير من خلال الوعظ ومقارعة طغيان الفرد على الفرد.

وأخيراً أقول لـ "أخي" المزعوم وغيره من الذين اعتدوا على حقوقي لا هنيئاً لكم بمال حرام، وأنتم بعملكم هذا قد قطعتم وشائج الأخوة، وحسبي الله ونعم الوكيل.

ابن الإسلامي العامري صنو ابن البعثي أحمد البكر

تأخر راكب في الوصول للمطار فأقلعت الطائرة من دونه، حدث اعتيادي يتكرر كل يوم، إلا إذا كان الراكب ابناً لوزير النقل العراقي هادي العامري، فيسارع الابن متسلحاً بسلطة أبيه لإصدار الأمر بمنع الطائرة اللبنانية من الهبوط بمطار بغداد فتعود الطائرة وتذهب الرحلة أدراج الرياح.

مهزلة مضحكة مبكية من تأليف وإخراج وتمثيل حكام العراق الحاليين، ذكرتني بمهزلة أخرى في أول عهد الرئيس البعثي أحمد حسن البكر.

كنت طالباً في الجامعة الأمريكية في بيروت عندما سمعت بالخبر، أمر صادر من الحكومة العراقية يقضي بمغادرة كافة العراقيين لبنان من دون تأخير، لم يهدأ بالي حتى أكد لي زميل عراقي أن الطلاب مستثنون من هذا القرار، تقصينا خلفية القرار فكان السبب العجب، تبين أن ابن الرئيس أحمد حسن البكر كان يقضي سهرة حمراء في أحد ملاهي لبنان الليلية حيث تسفح زجاجات الخمر ويتنافس السكارى على الفوز بـ "الفنانات"، ولسبب أو أخر غير نزيه تعارك ابن الرئيس مع لاهين سكارى، وخرج من المعركة مهزوماً ومغتاظاً، وعندما سمع أباه الرئيس بالخبر اصدر قراره بمغادرة العراقيين لبنان فوراً، وأتذكر بث التلفزيون اللبناني شريطاً مصوراً لمصطافين عراقيين حزانى لاضطرارهم لمغادرة لبنان على عجل ولما تكبدوه بسبب ذلك من خسائر مالية ومعاناة.

انتقدت هادي العامري في مقال سابق لدعوته الشيعة للتأسي بهابيل ابن آدم، وهو ما يعني سكوتهم على القتل الجماعي شبه اليومي على أيدي الإرهابيين، وهي دعوة باطلة ومناقضة للأمر القرآني للمسلمين بالدفاع المشروع ورد العدوان إحياءً للأنفس البريئة، وبالأمس تأكد لنا وبالدليل المادي ابتعاد هذا المحسوب

على التيار الإسلامي المشارك في حكم العراق عن قيم الدين السامية، والساكتون عليه من أرباب المنطقة الخضراء شركاء له في الخطيئة، وهم وأبناؤهم لا يختلفون جذرياً عن العامري وولده.

تربى ابن العامري وابن أحمد البكر في بيئتين مختلفتين، أو هكذا يبدو على الأقل، هذا في بيئة إسلامية أو متأسلمة وذاك في بيئة بعثية علمانية، اي أنهما سقيا من ماء مختلف افتراضاً، لكنهما صنوان في الفكر والسلوك، مما يثير التساؤل إن كانت البيئتان مختلفتين فعلاً، وفي تقديري اختلفت الواجهات والجوهر واحد، فكلا الجماعتين نابعتان من المحيط العراقي القبلي المتطبع على الأنانية والاستعلاء والعجرفة واستبداد القوي والنفاق، وكل زرع ينبت وينموا في هذه التربة الموبوءة والملوثة وإن اختلف في الصنف أو التسمية هو صنوان.

(للإسلام غايتان عظمتان هما الإحياء والاصلاح، ووسيلة كبرى وهي التعلم)

8 اذار 2014م

جذور الظلم في بنية المجتمع العراقي

أود بيان حجتي في تحميل المجتمع العراقي برمته ومعظم العراقيين أفراداً المسئولية عن المصائب التي حلت بساحتي وبكثير من العراقيين، ولا بد لي في البدء من الإشارة إلى تنوع الخلافات التي تنشأ بين الجماعات والأفراد في المجتمع الواحد، ويمكن تصنيفها على مقياس ترتيبي من خلافات بسيطة حول أمور ثانوية أو وسائل للوصول إلى غايات مشتركة إلى خلافات أساسية ومعقدة حول قضايا جوهرية ومصيرية، ومن البديهي عدم وجود مجتمع خال من الخلافات والمواقف المتنوعة، ولكن المجتمع يكون أكثر استقراراً عندما تكون الخلافات بسيطة وتعتمد في حلها الوسائل السلمية مثل التصويت أو الاستفتاء أو الاحتكام للمختصين، بينما تضطرب المجتمعات التي تكون الخلافات فيها جوهرية ومعقدة، وتكون القوة الفيصل في حسمها.

منذ نشأة الدولة العراقية في القرن العشرين ظهرت فيها خلافات حادة حول قضايا جوهرية، منها على سبيل المثال الموقف من الاحتلال البريطاني والانتداب ونظام الحكم واعتماد العرف العشائري ودور العشائر في السياسة والحكم الذاتي للأكراد، وحقق النظام الملكي نجاحاً محدوداً في تجاوز الكثير من الأزمات التي واجهته، ولكنه فشل في إرساء مؤسسات وعمليات ديمقراطية لحل الخلافات والنزاعات القائمة أو التي ستنشأ سلمياً، وفي 1958 أوقف الانقلاب العسكري عملية التطور الديمقراطي البطيئة وأرسى العنف كوسيلة وحيدة لتداول، أو بالأحرى انتزاع، السلطة، وازدادت قتامة الصورة السياسية في العراق باستيلاء البعثيين على السلطة في 1968، حيث نجحوا في تأسيس نظام شمولي يحرم التعددية بكافة أنواعها ويهدف إلى صهر المجتمع العراقي برمته في بوتقة واحدة، حيث يقسر أو يغرى الجميع من عرب وأكراد وتركمان ومسلمين ومسيحيين وغيرهم على الاعتقاد بأمة عربية واحدة ذات رسالة

خالدة، وأصبح الولاء للحزب الشمولي الواحد الوجه الآخر لعملة الوطنية والمقياس الوحيد لها، ومنذ البدء طبق النظام الطاغوتي نصيحة مكيافيلي للأمير بأن الأجدر أن تخافه وتخشاه الرعية من أن تحبه، فكان ناظم كزار والإعدامات الجماعية وقصر النهاية الغيلان النهارية والليلية التي أطلقها النظام لتدخل الرعب في نفوس العراقيين، ولا بد لنا من الاقرار بنجاح النظام في مهمته إلى حد كبير، فقد أفلح في حمل العراقيين على الانتماء لحزبه خوفاً وطمعاً، وحتى أشد الناس عداوة وكرهاً للبعثيين وهم الشيوعيون تخلوا بأعداد غير قليلة عن حزبهم وانضموا إلى حزب البعث، وقد بلغ الخوف بالعراقيين من بطش النظام الحقيقي والمتخيل حد الامتناع عن انتقاده أمام أفراد عوائلهم واصدقائهم، ولم يعارض النظام من خلال النشاط السري سوى النزر اليسير من العراقيين.

صنف النظام البعثي العراقيين إلى ثلاثة أنواع حسب الانتماء السياسي: بعثيون، ومعارضون ومستقلون، وقد خص البعثيين بمكانة متميزة ومنحهم حقوقاً وامتيازات خاصة، أتذكر منها على سبيل المثال ما ورد في أحد قرارات مجلس قيادة الثورة حول حق العراقي العائد من الدراسة في الخارج بإخلاء المستأجر من مسكنه، ووفقاً للقرار يحق لطالب البعثة الذي أنهى دراسته إخلاء المستأجر من بيته استثناءً من القانون المرعي، ومن المعروف بأن من شروط الحصول على بعثة دراسية في ذلك العهد الانتماء للحزب، ولما عدت من الدراسة في بريطانيا ولكن من دون بعثة لأني لم ارتضي لنفسي عار الانتماء لحزب الرذيلة والعبودية رفضوا معاملتي أسوة بطلاب البعثة علماً بأني عدت باختياري لا مضطراً لذلك، وبالتالي فقد حرمت من استرجاع منزلي الخرب واضطررت للسكن في بيت أخي. وكلنا نعرف معاملة البعثيين للقلة الذين تجرأوا على معارضته، وأغلبهم انتهى بهم المطاف إلى الإعدام والتصفية أو السجن أو التشريد، حتى خلت أو كادت تخلوا الساحة العراقية من المعارضين، والصنف الثالث من العراقيين وفقاً للتصنيف البعثي هم المستقلون، وهؤلاء كما تعرفون قال عنهم الطاغية بـ" أنهم بعثيون وإن لم ينتموا" وقد صدق الكذاب الأشر في ذلك، فالمستقلون هم

الشهود الساكتون على بطش وظلم النظام، وهم وإن لم ينتموا لحزبه فقد كانوا مرؤوسين مطيعين في الإدارات الحكومية وصفوف جيشه وشرطته، وكانوا أدوات مفيدة استند إليها النظام في إدامة حكمه وطغيانه، لذا فإن القول ببراءتهم من جرائم النظام باطل تماماً، حيث يقضي الحكم الشرعي بإثم إعانة الحاكم الظالم ولو بجرة قلم، ومن المؤكد بأن هؤلاء "المستقلين" قد اقترفوا أكثر من جرة قلم بكثير، ويتبادر إلى ذهني كنموذج على تردي القيم والأخلاق في أوائل الثمانينات من ذلك العهد زميل في العمل اشتكى لي يوماً من سوء حظه فسألته: لم تشتكي والله قد حباك بالصحة والشهادة والوظيفة التي يحسدك الكثيرون عليها؟ فرد متجهم الوجه: بالأمس ذهبت وصديقي لشراء أثاث عوائل "التبعية" الذين طردوا إلى إيران فاشترى صديقي خزانة ملابس، واشتريت أخرى، وبينما هو يبحث في أدراج الخزانة التي اشتراها عثر على مائتي دينار، هذا هو الحظ! أما أنا فلاحظ لي!! وهكذا بكى ذلك اللعين الذي يقبع حالياً في أمريكا بجانب زوجته المريضة بداء عضال حظه لأنه لم يسعفه إلى مال حرام منهوب مغصوب ممزوج بحسرات أصحابه الشرعيين الذين أصبحوا بين ليلة وضحاها بدون وطن وبلا مأوى ولا مال، لأن العراقيين كانوا أما بعثيين جناة أو بدون قيم أو أخلاق مثل هذا الساقط أو خرس ساكتين عن الحق.

كانت الحرب التي شنها على جمهورية إيران الإسلامية أقسى اختبار يتعرض له النظام البعثي حتى حينه، وبالرغم من افتقار الحرب للمشروعية وخسائرها الفادحة وكبر المعاناة التي فرضتها على العراقيين فقد استطاع النظام من إدامتها ثمان سنوات من دون ظهور أي اعتراض جماهيري عليها، ولو استثنينا بعض المجموعات الصغيرة لأمكن القول بأن العراقيين أجمعين شاركوا في تلك الحرب العدوانية المهلكة برضا واقتناع أو باستسلام وخنوع للإرادة البعثية، وكانوا بالتالي شركاء في آثامها، فحق القول بأنهم كانوا على دين البعث وكان الطاغية الفرعوني صدام ربهم الأوحد.

كان الطاغية صدام وحزبه وأتباعه شراً مستطيراً، وليس من المقبول إنسانياً وأخلاقياً اتخاذ موقف الحياد منه، فأما ان تكون معه أو ضده، ويترتب على الضد من النظام سلوكيات وواجبات، وفي شرع الله هنالك ظالمون ومتقون، والظالمون أولياء بعضهم بعض والله ولي المتقين، وكلنا نتحمل المسؤوليات الجسيمة المترتبة على الواجب الشرعي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومبدأ كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، ولا يعذر الإنسان بدعوى كونه "مستضعفاً" فيما عدا العاجزين عن مجابهة الظالمين أو الهجرة من دار الظلم، ويبين القرآن الكريم الموقف الواجب على المستضعفين اتخاذه (النساء:75): [وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيرا] وفي الحوار التالي يتنصل المستكبرون من المسئولية عن انحراف المستضعفين (سبأ: 31-32): [ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم لا يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا نحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين] ويواجه المستضعفون الذين يقبلون بأمرة المستكبرين أسوء مصير (النساء 97-98): [إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا]

التفت المشرعون في بعض الدول الغربية إلى مسؤولية الفرد عن إغاثة الملهوف، واقتنعوا بضرورة عدم الركون إلى ضمير الفرد ووازعه الأخلاقي لضمان ممارستها، فأقدموا على وضع تشريع خاص بذلك، يعرف بتشريع The good Samaritan أو السامري الطيب، والذي يقضي بأن من واجب المار على شخص مصاب أو مريض بحاجة لإغاثة بذل كل ما هو واجب ومستطاع لإغاثته، ويتعرض المقصر والمتهاون في ذلك للمسائلة القانونية، ولقد نكب

النظام الصدامي المجرم الكثير من العراقيين بالقتل والتشريد وأنواع أخرى من الظلم فماذا فعل البقية؟ أؤكد لكم بأن أحداً في العراق، سواء من أهلي أو غيرهم، لم يد المساعدة لي بل أن بعضهم استغل الوضع لنهب حقوقي والتهديد بتحريض حكومة البعث على الاستيلاء عليها بدعوى انتمائي لحزب محظور، ولا بد أن البعض منكم قد سمع أو قرأ عن أقارب لي اهدروا دم أحد أقاربي، لأنه انتقد الحكومة البعثية من على شاشة قناة الجزيرة، وأرادوا التقرب لصدام حسين بدمه المهدور، وهم لا يزالون على دينهم القبلي في نهب أموالي، وقد اكتسبوا قوة فوق قوة بفضل اتصالاتهم مع بعض القوى السياسية المؤثرة، والذين كانوا بالأمس أزلاماً للنظام أو ساكتين عن الحق أصبحوا اليوم موظفين في سفارات العراق ومسؤولين كبار في أجهزة الإدارة، اما أنا فتظن هذه الحكومة الفاسدة والعميلة للأمريكان علي وعلى أولادي بجوازات سفر، ولأن أعضاء هذه الحكومة وصنائعهم مرتزقة لا يهمهم سوى المناصب وجمع الأموال قاموا بتوظيف من هم على شاكلتهم من عديمي الكفاءة ومزوري الشهادات من أقاربهم وأعوانهم في البرلمان والوزارة وأجهزة الدولة، وتضافرت هذه العوامل مع النوايا الخبيثة للمحتلين الأمريكان وهمجية الإرهابيين الطائفيين للوصول بالعملية السياسية والأمن والخدمات إلى حافة الانهيار، وأصبح العراقيون خائفين على وجود العراق وديمومة كيانه، فهل بقي لي أمل بالعودة بنفسي وعائلتي إلى عراق آمن مستقر في الزمن القصير المتبقي من عمري؟

لكل هذه الأسباب والحجج والشواهد يحق لي توجيه أصابع الاتهام لكل العراقيين الذين كانوا أعضاء في حزب العهر والرذيلة وكل العراقيين الذين علموا بظلم البعثيين ورضوا عنه وكذلك كل العراقيين الذين شهدوا ظلم البعثيين وسكتوا عليه.

جذور المشكلة العراقية والحلول الممكنة

سألني أحد الأخوة عن ماهية المشكلة العراقية وكيفية حلها، وقد أخرجني سؤاله من دوامة تقصي المشكلة من أطرافها، ونبهني إلى ما تمليه الموضوعية والتجرد من صراحة، قد تكون مؤلمة، ولكن مهما بلغت مرارة الدواء فهي أقل وطأة من الداء الوبيل.

جوهر المشكلة الرئيسية في العراق سياسي، ولها أبعاد ومظاهر اجتماعية وتاريخية وإثنية وطائفية، هي صراع على السلطة والمنافع والأرض، وفض الصراع لا يأتي من إنكاره كما يفعل البعض بل من الاقرار بوجوده ومجابهته والعمل على انهاءه سلمياً.

يشبه بعض الكتاب الغربيين الصراع داخل المجتمعات بمباراة رياضية، وعندما تختفي الروح الرياضية بين اللاعبين تحدث بعض الإصابات بينهم، وقد يهلك بعض المشجعين المتحمسين نتيجة شغب داخل الملعب، لكن مهما بلغت الأضرار البشرية والمادية لمباراة رياضية سيئة فهي لا تقارب الكارثة الكبرى التي وقع بها العراق نتيجة هذا الصراع المجنون، لذلك لا بد من تقصي جذوره الاجتماعية.

تكمن جذور المشكلة العراقية في الشخصية العراقية، وعلى وجه التحديد في ثنائية القيم وأسلوب الحياة، وتنعكس أو تتمثل هذه الثنائية الجدلية في نمطين مختلفين وغالباً متناقضين ومتصارعين للفكر والسلوك داخل الجماعة والمجتمع، الأول بدوي يعتمد القوة كأساس للعلاقات بين البشر، والثاني مدني يدعو لاعتماد التعاون والتفاهم والمعرفة في الفكر والسلوك. النمط البدوي قديم وتقليدي وراسخ في القيم والأعراف القبلية، أما النمط المدني فهو أحدث تاريخياً وينطلق من القيم الدينية والإنسانية.

قلة هم الذين يمكن تصنيفهم ضمن البداءة الصرفة أو المدنية الخالصة، والغالبية هم خليط، أي أنهم بدو ومدنيون في نفس الوقت، لذلك كلنا نفكر ونتصرف وفقاً لما تمليه علينا هذه الثنائية، ولكن بدرجات متفاوتة، تختلف أحياناً بفعل المؤثرات الخارجية أو الحالة النفسية، لذلك يتصرف الواحد منا أحياناً بمنتهى البداوة من حيث القسوة والتسلط وحتى استعمال العنف، وفي مواقف أخرى نحرص على تطبيق قيم المدنية الحضارية من انفتاح عقلي وتعايش سلمي وتعاون.

خلفت النظم السياسية المستبدة روحاً انهزامية وعقدة دونية في نفوس الكثير من العراقيين، والمثال على ذلك نجده في اعتقاد الكثيرين منهم اليوم بأنهم كانوا عاجزين تماماً عن رفع الظلم عنهم، ولولا الاحتلال الأمريكي لمكثوا في الذل المهين إلى ما شاء الله. وعندما تجتمع الاستقامة مع القلق والروح الانهزامية يتبادر إلى الذهن الشك في حقيقة ومدى تأثير الوازع الديني على سلوكهم كما يدعون، إذ من المحتمل إن يكون التذرع بالاستقامة والورع مجرد قناع تخفي الجماعة وراءه قلقها من الدخول في الاختبار واحتمال الفشل والهزيمة.

بالمقابل يرى البعض من ورثة المتسلطين بأنهم أقوياء وإن كانوا أقلية، واستطاعوا من كسر شوكة الأكثرية والسيطرة عليهم على مدى التاريخ الإسلامي لذلك فالوضع الحالي استثناء على حتميات التاريخ، ومآله الزوال، أما الأكراد فهم مقتنعون بأن نضالهم الذي اعتمد العنف كوسيلة وحيدة حقق لهم ما يصبون إليه، وما زالوا يعتمدون هذا المبدأ في تعاملهم مع بقية الفئات العراقية، لذلك يبدو ظاهرياً أن الوازع البدوي المتمثل باستعمال القوة والعنف أو التهديد بها هو الأكثر تأثيراً لدى ورثة المتسلطين والأكراد.

أضاع أكثرية العراقيين بتقديري فرصة ذهبية بعد اسقاط الاحتلال الأمريكي للنظام البعثي الظالم، وبدلاً من رفض الاحتلال هادنوا المحتلين، وقبلوا بإملاءاتهم وشروطهم، وغضوا الطرف عن مكائدهم الخبيثة وسعيهم الحثيث لإضعافهم ومنعهم من ممارسة حقوقهم

الديمقراطية كاملة من خلال فرض نظام سياسي عاجز وفاسد، يعتمد المحاصصة الطائفية والإثنية واللامركزية المفرطة، وهكذا فوت قادة هؤلاء الخانسين في المسكنة فرصة الوقوف بشجاعة وتصميم أمام المحتلين، ولو اكتفوا بالمقاومة السلمية لكان ذلك كافياً لفرض الانسحاب على المحتلين في ظل المعارضة الواسعة والنشطة للاحتلال داخل أمريكا وحلفائها الغربيين.

هل البداوة أو العنف هي السبيل الوحيد لمجابهة الحالة البدوية المتمثلة في استعمال القلة من العراقيين من ورثة المتسلطين للعنف أو التهديد به؟ إن دعوة إنسان هائج يحمل ساطوراً للمناظرة انتحار بالتأكيد، ولكن ليس بالقوة الفجة وحدها تتغلب على البداوة المتوحشة، ولنتذكر أن البريطانيين آبان أيام عزهم الإمبراطوري كانوا يحكمون القارات بعدد صغير من السفن والجنود وكثير من المكر والقوة الاقتصادية والمعنوية، واستطاع المهاتما غاندي طردهم من الهند من دون استخدام العنف، لكنه استخدم أشكالاً أخرى من القوة.

الحل في التنمية الشاملة العادلة المستديمة، التي تنفع الجميع من دون استثناء أو محاباة، وعلى أساس أن العيش المحترم هو أول الحقوق واكثرها أهمية، بل هو أهم من بعض الحريات أيضاً، لكن هذا الهدف قد يكون بعيد المنال، خاصة لو استمر هذا النوع من الحكام في السلطة، فهل يوجد طريق مختصر لدفع العراق من حالة الغليان أو شبه الغليان الحالية إلى السكينة والسلام؟

يوجد الحل السعودي، وهو جدير بالاهتمام، لأن آل سعود نجحوا في الاحتفاظ بملكهم والمحافظة على السلم الاهلي لعقود طويلة، عندما سأل أحد الصحفيين الأجانب وزير التخطيط الأسبق هشام ناظر: ماذا تفعلون عندما تواجهكم مشكلة؟ أجابه باللغة الإنجليزية: (نرمي عليها نقود)، والنقود كما يدرك الجميع علاج ناجع للكثير من المشاكل، وإن لم يكن بلسماً، ولكنه قد يكون كافياً في الكثير من الحالات لمنع تفاقم المشكلات، لذلك سارعوا لزيادة الرواتب وتوفير القروض الميسرة بعد بدأ ثورات الربيع العربي مباشرة، وأتذكر هنا ما قاله لي أحد المعارضين السوريين الذي كان يهتف بسقوط نظام

الأسد عندما شاهدني أحمل ملصقاً معادياً لحكام البحرين: لماذا تعارضون حكم آل خليفة وهم منحوا كل عائلة بحرينية ألف دينار؟

يشتري آل سعود ولاء رؤوساء القبائل بالمخصصات المالية التي يوزعونها عليهم شهرياً، ولا يحصل أتباعهم منها إلا على النزر اليسير، وقد جرب المحتلون الأمريكيون والحكومة العراقية هذه الطريقة، لكنها غير كافية، بسبب وجود مشكلات اقتصادية كبيرة مقترنة بارتفاع مستوى التوقعات.

يتطلب تفعيل الحل التنموي لمشاكل العراق تغييراً جذرياً في القيادة وأساليبها، وبالتأكيد فإن القيادة الحالية للحكومة غير قادرة على إدارة التنمية، وقد ثبت فشلها على مدى عشر سنين تقريباً، لذا فإن مقاربة الحل وتجنيب البلاد خطر الصراع الدموي بين كافة فئاته يبدأ من تغيير الحكومة الحالية واستبدالها بحكومة من أصحاب المؤهلات والخبرات التخصصية والإدارية وتحويل الاهتمام من السياسة إلى الاقتصاد ووضع استراتيجية متكاملة للتنمية، وإلا فسيحتكم الجميع إلى البداوة في حسم الصرع.

17 أيلول 2013م

(للإسلام غايتان عظمتان هما الإحياء والاصلاح، ووسيلة كبرى وهي التعلم)

متى ترضى أم حسين عن العراقيين؟

أم حسين من أصل عراقي، تعمل بائعة، في متجر للمسلمين، يقصدونه لشراء سجادات الصلاة والحجاب وغيرها، تقول بأنها مضطرة للعمل لا مختارة، بسبب تكاليف المعيشة الباهظة في الغربة، سألتها: لم لا تعودين وعائلتك للعراق؟

تجيب: أنا لا أثق بالعراقيين.

هكذا ومن دون تردد وبنظرات ثقة ويقين أجابت أم حسين.

هي لا تثق بالعراقيين، كل العراقيين، بمختلف أعراقهم، وتنوع أديانهم وطوائفهم، السنة والشيعة، في الماضي والحاضر، وحتى في المستقبل، تجدهم غير مستحقين لثقتها.

لماذا يا أم حسين؟

تجيب أم حسين بأنها كانت وعائلتها ضمن المهجرين من العراق في أوائل الثمانينيات من القرن الماضي، ولا يغيب عن مخيلتها مشاهد التهجير القسري، والرعب الذي انتابهم عندما اقتحم رجال الأمن أبواب بيوتهم، واقتادوهم عنوة، من دون مال أو متاع، وتركوهم عند الحدود نهباً للخوف والقلق من مصير مجهول .

ذكرتني قصة أم حسين بذلك العراقي الذي شاءت المقادير مزاملته في العمل، حدثني يوماً بعد بدء الحرب العراقية على إيران أوائل ثمانينات القرن الماضي فقال: أنا غير محظوظ يا دكتور؟ سألته عن السبب، وتوقعت أن يشتكي من تأخر ترقيته أو عدم قدرته على توفير منزل خاص لعائلته، وكان قد خطب زميلة له في العمل، لكنه أجاب موضحاً بما معناه: بالأمس حضرت وصديقي مزاداً أقامته أجهزة الأمن لبيع ممتلكات المهجرين، واشترى كل واحد منا خزانة ملابس، وبعد الشراء فتشنا الخزانتين، فوجد صديقي مبلغ مئتي دينار في خزانته أما أنا فلم أعثر على فلس واحد، ألا ترى يا دكتور

بأني غير محظوظ؟ لعنته في سري وابتعدت، علمت فيما بعد بأنه هاجر إلى أمريكا، واكتشف الأطباء هناك إصابة زوجته بداء الالتهاب أو التصلب العصبي المتكرر وهي بعد شابة فأقعدها المرض، لعل لعنة الخزانة المنهوبة طاردته هو زوجته إلى أمريكا، وكلما تذكرت القصة تساءلت مع نفسي عن مصير صديقه فهو لم يشتري الخزانة المنهوبة فقط بل استحل النقود المتروكة داخلها، وقد تكون الخزانة والأموال من ممتلكات أم حسين وأهلها.

للعلم فإن ذي الحظ الرديء وأم حسين من طائفة واحدة، وكلاهما شيعي.

هل تلام أم حسين على عدم ثقتها بالعراقيين، وهي تقرأ يومياً عن فساد حكامه وشهوتهم اللامتناهية للسلطة واستهانتهم بدماء الأبرياء وتفريطهم بوحدة وسيادة واستقلال وطنهم وعفوهم عن البعثيين القتلة وموالاتهم لأمريكا، فالعراق ما زال كما في عهد الطاغية الذي هجرها وعائلتها مرتعاً للظلم، يهاب فيه القوي ويهان فيه الضعيف، ويضام البريء ويفلت المذنب، يفتقر فيه النزيه ويغتني السارق والمرتشي، اختلفت الاسماء وتغيرت الوجوه، أو بالأحرى بعضها، لكن القلوب ما زالت مغلولة والعقول مغلقة والقيم معطلة والتدين مظاهر والمعاملات نفاق.

الان جاء دوركم لتسألوا أنفسكم وتجيبوا بصدق: هل تستحقون ثقة أم حسين؟

15 شباط 2014م

هل يلوم العراقيون أنفسهم؟

هنالك الكثير من اللوم في العراق، ربما أكثر من المعتاد، ولو وضعت قائمة لكان العراق أكثر دول العالم لوماً، وحتى لا يساء فهمي، فأنا لست ضد اللوم، بل أنا أدعو إليه وبشدة، ويكفي للاستدلال على أهمية اللوم، بل وحتى قدسيته، أن الله عز وجل أقسم بالنفس اللوامة.

من يلوم العراقيون؟ الكل يلوم الكل، وهم لا يكلون ولا يملون من اللوم، وكل نهار يتراشقون باللوم، عندما يجتمعون سوية يتلاومون، وحتى في الولائم يرشون رذاذ كلمات اللوم على طعامهم قبل الملح والبهارات، ولا يستنفذ النهار كل كلمات لومهم فيبدؤون يومهم التالي باللوم حتى قبل التحايا الصباحية.

يلوم العراقي الجميع إلا نفسه، منهم قريب لي، كلما واجهته ضائقة رفع عينيه إلى السماء ملقياً باللوم على خالقه، فهو في ذلك على مذهب الجبرية، أو على الأقل فيما يصيبه من بلاء، ويدعي لنفسه بكل خير يمسه، على شاكلة قارون: إنما أوتيته على علم من عندي، أما أن يلوم نفسه فألف لا.

للغرباء نصيب وافر من لومنا، البعيدون والقريبون منهم، وكلهم يتدخلون في شؤوننا، ويمكرون بنا، ويتعدون على حقوقنا، يلومهم أعلى الناس سلطة في البلاد، وكذلك أقلهم تأثيراً من العباد، وكأنهم اناس عاجزون، وعن رد الفعل مشلولون، وهم في ذلك مصيبون، إذ اليوم العراق أرض سائبة مشاعة، يرتع فيها الأجانب، من دول وفئات عرقية متنوعة ومنظمات إرهابية مختلفة.

ينحي العراقيون باللوم على مجتمعهم، وإن اختلفوا في تحديد جوانبه الملامة، وما أكثر لائمي القبلية، قبل وبعد المرحوم علي الوردي، ولو تفحصوا أنفسهم، ولا حاجة لطبيب نفسي، لتبينوا أن

القبلية كامنة ومستقرة في نفوسهم أجمعين، بل هي أقرب إليهم من الوتين، تبرز كلما استفزوا، فكراً متصلباً ومتقوقعاً، لا يطيق الاختلاف في الرأي، وسلوكاً متشنجاً، تضع الوضيع منهم في مصاف فرعون، فلا مكانة ولا احترام إلا للأقوى والأعلى صوتاً والأكثر وقاحة.

ينحى المتدينون باللائمة على العلمانيين، وكأن البلاد خلت إلا من علمانيين، فما من نقيصة أو فشل في تاريخ العراق إلا ومن وراءه علماني، ويرد عليهم العلمانيون بالمثل، وكأن كل الناس متدينون، أو أن كل من ادعى التدين كان تدينه صحيحاً، وفي الواقع لا يوجد في العراق تدين محض ولا علمانية حقة، وإنما نفوس مضطربة بالشك والحيرة القلق والتوجس والخرافة إلى درجة تمنعها من التفكير السوي، وتقودها للتخبط في السلوك، ولكنهم بالطبع ينكرون ذلك.

كل فئة عرقية في العراق تلوم الاخريات، فالعرب يحملون الأكراد والتركمان وغيرهم المسؤولية عن خراب العراق، لكونهم لا ينفكون عن المطالبة بالاستقلال عنه، وكأن عرب العراق جرب، لا يطيقون البقاء بجانبهم لحظة واحدة، لئلا تصيبهم العدوى، ويتناسى العرب بأنهم أصحاب القوة والقرار، ولو أحسنوا التعامل مع غيرهم من الأعراق لما تمنوا الفراق، والأكراد بدورهم يلومون العرب، ويتهمونهم بالتسبب بكل مصائبهم، حتى غدا العرب لدى الكرد شياطين الانس، فهم يتهمون العرب بحرمانهم من حقهم في تكوين دولتهم المستقلة، ويتناسون أن الدول الاستعمارية السابقة التي يلوذ الكرد بحماها اليوم قسمت المنطقة وفقاً لمصالحها، وبأن الكرد وعلى مدى عقود شاغلوا العرب بالتمرد والقتال.

ما بين السنة والشيعة في العراق أكثر بكثير من تبادل اللوم، وما قولهم نحن أخوة إلا الإنكار، أو هي أخوة قابيل وأخوه، ما بينهما خلاف مستفحل، بين قبيلتي الشيعة والسنة، كما عبس وذبيان، أو تغلب وشيبان، في سالف العصر والزمان، والدين منه بريء، ولو تحلى الطرفان بقيم وأخلاق الإسلام، لما حدث خلاف، ولساد الوئام بينهما،

لكنهما وحتى ذلك الحين، إن حدث ذلك، سيستمران في تبادل اللوم وجارح الكلام، وأحياناً أسوء من ذلك بكثير.

أتمنى لو يفيق العراقيون يوماً، ليضعوا التلاوم بينهم ولوم الغير على قائمة المحظورات، مع المخدرات والظلم وغصب الحقوق، ليتفرغوا للوم أنفسهم، وتشخيص نواقصها، وتقصي عيوبها ومثالبها، ثم يعمدون لتهذيبها.

20 نيسان 2013م

يا عراقيون اتعظوا من "قطة خالد"

على الأرجح لم يبق العديد ممن يتذكر محمد حمدان، معلم الصف الأول في المدرسة الابتدائية، التي قضيت في صفوفها أربع سنوات عجاف، أتعلم الزيزي، كما كان أهلنا يسمون المدرسة، والمعلم محمد، رحمه الله، كان بديناً، والبدانة ظاهرة نادرة بين أهلنا الجنوبيين، الذين كان قوتهم اليومي رغيف خبز في الصباح وشاي نصفه سكر، وللغداء صحن خضار ورغيف خبز وتمرات، ومن لا يجد طعاماً يكفيه يتناول حفنة تراب، ولا أقولها مجازاً، بل بالفعل رأيت اطفالاً يلتهمون التراب. ويقتسم الفلاحون الفقراء طعامهم القليل الذي لا يكاد يسد رمقهم مع جيوش الديدان والطفيليات التي تسكن في أمعائهم، ولعل إحساس محمد حمدان بالذنب ورغبته في الامتزاج بجيرانه الرشيقين جداً رغم أنوفهم دفعته إلى محاولة إنقاص وزنه، أو هل تراه كان يتذرع بذلك لتبرير ولعه ببذور البطيخ المحمصة، التي كان يتناولها بشراهة في الصف مدعياً بإنها طريقة موصوفة ومجربة للحمية؟ ولا ينتهي الدرس إلا ويكون معلمنا قد أحاط نفسه بسور من قشور بذور البطيخ، وبمناسبة الحديث عن البذور يروى بأن أحدهم سأل الزعيم النازي هتلر لم وضع العرب بدرجة واحدة أعلى من اليهود والقرود، فأجاب لأنهم أمة تأكل البذور بدلاً من زراعتها، وما لم يعرفه هتلر هو أن الفلاح الشيعي العراقي كان يزرع طيلة السنة ويجوع ليأكل الملاكون حتى التخمة وتتغذى ديدان بطنه، وإن الذين كانوا يأكلون البذور هم "الحضير" أمثال معلمنا محمد حمدان.

كان المعلم في زمان محمد حمدان رسولاً للمعرفة ومبشراً بمستقبل أفضل، على الأقل للمتفائلين وذوي العزم والتصميم، فلا عجب أن يرتفع نجم المعلم الاجتماعي ويحظى بمكانة اجتماعية مرموقة، يحسدها عليه حتى ملاكو الأراضي والتجار الموسرين، وكان أقصى ما يتمناه الريفيون الطموحون شهادة من معهد للمعلمين أو مصاهرة معلم، وكان المعلمون من ضمن قلة من المهنيين

والموظفين، الذين يقصدون مع الأثرياء من زعماء القبائل والتجار مصائف لبنان وسورية، وكان التبضع في أسواق لبنان المشهورة والقديمة، مثل سرسق والطويلة، متعة للمصطافين، لا تقل عن متع المصيف الأخرى، وأول وآخر ما يفكر به الكثير من المصطافين "الصوغة"، التي تحتم عليه تقاليدنا الاجتماعية الرجوع بها بعد كل سفرة، والبعض منا لا ينتظر أن يتذكره قريبه أو صديقه المسافر بل يوصيه بشراء ما يريده، ولم يجد معلمنا محمد حمدان حرجاً من أن يطلب مني، صيفاً بعد آخر، تذكير والدي، الذي كان يقضي كل صيف تقريباً في مصائف لبنان، بربطة العنق، التي تعود أن يشتريها له من لبنان في كل عام، وكنت انتظر عودة والدي محملاً بالهدايا وحلويات لبنان...وربطة العنق المستوردة للمعلم محمد حمدان، الذي كان مولعاً بربطات العنق الأنيقة بقدر إدمانه بذور البطيخ المحمصة.

ما بدانة وربطات عنق معلمنا محمد حمدان سوى غلاف أو زخرف لتلك الطاقة التعليمية المباركة، التي زودتنا نحن تلاميذه في الصفوف الأولى بأفضل زاد بعد تقوى الله، ومن دون أن ندرك قيمة التعلم كنا نجأر معه كل يوم بكل ثقة وتصديق: إحنا صف الأول أحسن الصفوف واللي ما يصدق بينه خلي يجي ويشوف، ولو أتى هذا المخاطب المجهول بالفعل لشاهد وجوهنا الشاحبة الصفراء بفعل سوء التغذية والطفيليات المعوية والخوف من مسطرة المعلم، ولما فاتته ملاحظة تململنا وتلفتنا بين الحين والآخر نحو النافذة حيث ملاعب الصبا في مزارع النخيل والحقول الخضراء، ولو راقبنا طيلة اليوم الدراسي لشهد أول الصباح اصطفافنا في طوابير لكي نخضع للتفتيش اليومي على المناديل والأظافر، ثم مسيرنا تحت تأثير المساطر لنتناول كوباً من حليب "القواطي" وكبسولة زيت السمك، ولو كان الحليب يصدأ لكان طعم الحليب الصدئ أفضل من ذلك الحليب، ولا أدري أيهما أسوء الحليب أم الدواء، وكنا نتجرع الأثنين خوهاً ورهباً من المسطرة.

لم أدرك مغزى "أحسن الصفوف"، إلا بعد حين، وآنذاك ترحمت على محمد حمدان وأمثاله الذين كانوا يؤدون مهمة صعبة، فساعة يغرسون المعارف في عقولنا، وفي أخرى يثيرون الحماس والفخر في نفوسنا لنكمل المسيرة ومعظمنا لم يفعل، وهم مضطرون لبعث الرعب من المسطرة في نفوسنا لئلا يفلت زمامنا، فنستبدل الدراسة باللهو ونجعل المدرسة ملعباً، ولكننا كنا بالفعل أول الصفوف ليس في المدرسة فقط، بل في المجتمع برمته، فقد كنا نرتقي الدرجات الأولى على سلم المعرفة، وهي الأصعب، وأي فخر بعد ذلك.

عندما يستنفذ محمد حمدان قسطه اليومي من تعليم الزيزي ينتقل إلى التسلية المختلطة بالموعظة، وهو دور تربوي لا يقل أهمية عن دوره التعليمي، وهنا يأتي دور "قطة خالد"، ولم يكن خالد أحد معلمي المدرسة الابتدائية، ولا أدري إن كان للمعلم صديق اسمه خالد، ولم يكن هنالك في مدينتنا الصغيرة سوى شخص واحد أسمه خالد، وخالد هو شخصية وهمية في أنشودة، كان يحلو لمعلمنا إلقاءها علينا كل يوم، وكنا نرددها معه بأعلى أصواتنا، ولم أعد أتذكر منها سوى بعض المقاطع، لكن معانيها ورسالتها ظلت راسخة في ذهني حتى اليوم، وأتساءل اليوم إن كان كل الأباء والأجداد العراقيين قد استمعوا لأنشودة "قطة خالد" وشاركوا في ترديدها فلماذا لم يتعظوا بها ويربوا أولادهم على المباديء والقيم السامية التي تدعو إليها؟ لذا أجد لزاماً على نفسي تذكيرهم بالموعظة البالغة في قصة خالد والقطة، هكذا تبدأ الأنشودة:

خالد دخل للغرفة للغرفة

لكه القطة ملتفة ملتفة

صار يضربها هواية هواية

وهي المسكينة تنونو وتنونو!

إلى هذا الحد وتخذلني الذاكرة، وليس المهم أن أتذكر حرفياً الكلمات البسيطة للأنشودة، لأن الفائدة تكمن في المعاني، وكان الشقي خالد يوسع القطة ضرباً غير آبه لموائها المستعطف وصرخات ألمها،

وهي تتراجع أمامه حتى حشرها في زاوية الغرفة، ولم يعد أمامها سبيل للهروب من قسوة خالد، حينئذ تحولت القطة من حيوان آليف وديع إلى وحش كاسر، منقضة على خالد عضاً بأسنانها وخمشاً بمخالبها، حتى أوجعته وأسالت دماءه ودموعه، واضطرته إلى الهرب من الغرفة، وهنا تسعفني الذاكرة بالمقطع الأخير من الأنشودة الطفولية:

اللي يتعدى على الناس

يأكله فشخة بالراس!

أدعوا المستهدفين بالإرهاب من العراقيين، للنظر في سلوك قطة خالد، كما أتمنى من الإرهابيين وحماتهم الاتعاظ مما جرى لخالد حتى لا ينتهوا إلى نفس مصيره، أقول لأشباه قطة خالد، تعرضتم للجور والتعسف والإهانة منذ أن جاوركم خالد الظالم المعتدي، الذي أذاقكم الخسف، تنفيذاً لأوامر سادته وحكامه الجائرين الناقمين عليكم لمعارضتكم تسلطهم اللامشروع، ولكي يستأثر هو وحده بخيرات بلدكم، وإرضاءً لسادية ومرض في نفسه، ولقد انقضت القرون الماضية وأنتم تتراجعون أمام خالد ورهطه المعتدين الظالمين، حتى أصبحتم عند الزاوية الأخيرة لموطنكم، فالعدو خالد أمامكم والخليج والحدود من وراءكم فهل سترمون بأنفسكم جميعاً في اليم أم تلجؤون إلى جيرانكم، ومن سيقبل ملايينكم لاجئين في بلادهم، "أخوان خالد" من الأعراب والمستعربين أم الإيرانيون المكتظة بلادهم بالسكان؟ ستضطرون كما "قطة خالد" للرد على عدوان الظالمين، الذين أثخنوكم ذبحاً واغتصاباً وتهجيراً، وسيحدث ذلك عاجلاً لا آجلاً لأن خالد تمادى في غيه، ولن ينقذه من هجومكم المضاد المستميت حتى لو تاب وطلب الصفح لأن آوان ذلك قد فات وولى، ولا يلومن خالد أحداً، فقد جنى على نفسه، ولن ينجو من عواقب أفعاله المقبوحة لو اجتمع كل الخوالد على نصرته، لأن كيد الظالمين ضعيف، وقبله كان "الخالد" صدام يظن بأنه سيحكم العراق حتى لحظة موته وسيخلفه أولاده من بعده فأين هو الآن وما الذي تبقى من أولاده؟ فيا خالد ستطاردك القطة وستكون محظوظاً

لو نجوت ببدنك، وتهيأ للوقوع في الهاوية التي حفرتها بيديك وملأتها ظلاماً ورعباً وشقاءً وآلاماً، والبادئ أظلم، وأعود إلى ضحايا الإرهاب لأقول لهم: أنتم لستم بالقطط، التي ترى خالداً عملاقاً، أنتم أكبر منه حجماً وقدرة، بل أنتم أسود ونمور وما هو إلا قزم ضعيف، يتظاهر بالعملقة، فلم تتحملون منه كل هذا التعسف، اعرفوا أنفسكم وتصرفوا وفقاً لذلك، لقد تنازلتم عن معظم حقوقكم لخالد، فلم يزده ذلك سوى إجراماً، والله إن زمجرة واحدة بوجه خالد كافية لبث الرعب في أوصاله، وستجدونه جاثياً أماكم مقراً بذنوبه، طالباً الصفح والمغفرة، ومعترفاً لكم بكامل حقوقكم، وسواء فعلتم ذلك اليوم أم الغد فالنتيجة هي هزيمة خالد النكراء، ولكنكم لو فعلتم ذلك قبل ثلاث سنين لما تجرأ خالد على قطع الرقاب وسفك الدماء وانتهاك الأعراض وتهجير العوائل الآمنة.

في العراق الوقحون يتنعمون والمؤدبون يعذبون

" احضر إلى الديوان وسئل عن الأموال فأمر بضربه، فضرب ثم أقعد فلم يعترف بشيء غير الظاهر، فأمر بقتله فضرب بالسكاكين والسيوف، وكان بالاتفاق في الديوان نجار جاء متفرجاً ومعه فأس فضربه عدة ضربات، ثم قطع إرباً إرباً، وتناهبه العوام، فتعمم نفاط بمصرانه، وطافوا به في شوارع بغداد ودروبها، ثم أحرق بباب جامع الخليفة ماعدا رأسه فسلخ وحشي تبناً، وطيف به في جانبي بغداد وحمل إلى واسط فعلق على جسرها".

هذا وصف لمقتل الوزير مهذب الدولة كما ورد في كتاب العراق بين احتلالين لمؤلفه عباس العزاوي (ص 349)، لا ندري إن كان هذا الرجل مستحقاً الإعدام جزاء ما اقترفت يداه، لكننا نجزم بأن المشاركين في قتله والتمثيل بجثته بهذه الطريقة الوحشية خرجوا من الإيمان وتجردوا من كل القيم والأخلاق، بل حتى انسلخوا عن إنسانيتهم، ولعل بعضهم انجرف لذلك بفعل تأثير السلوك الجمعي، فكان انحرافه وقتياً ندم بعده، ولكن نرجح بأن النجار الذي ضرب الرجل بفأسه، والنفاط الذي عبث بأحشائه، والمجهول الذي سلخ رأسه، واللعين الذي حشى الرأس تبناً متطبعون على الهمجية والعدائية والقسوة، بدرجة تهبط بهم من مستوى الإنسانية السوية إلى حضيض السادية والضداجتماعية antisocial personality، لم يكن أولئك الأوائل من نوعهم، كما يوجد بيننا اليوم – في بغداد وغيرها من مدن وقرى العراق- أفراد لا يقلون سادية ووحشية من ذلك السلف، ولو كانت كل ميتة فظيعة تستحق التدوين في كتب التاريخ لملأ المؤرخون مجلدات عن وقائع العام المنصرم فقط، ومادام هنالك وقحون لا يتورعون عن اقتراف الفظائع فلن يهنأ للمؤدبين عيش أبداً، مما يحتم علينا البحث عن جذور هذه الوقاحة المتناهية ضمن المجتمع العراقي.

كان قابيل وقحاً لدرجة سولت له نفسه قتل أخيه المؤدب هابيل، لذا فمن المحتمل أن يكبر أخوان ليكونا ضدين تماماً، ولكن الإنسان يولد على فطرة سوية، ومن ثم يترعرع في بيئة عائلية واجتماعية تغرس في نفسه قيماً ومباديء أخلاقية ومعتقدات، وقد تتضافر هذه القيم والمبادئ مع الفطرة السوية أو تناقضها، و تترسخ المحصلة النهائية لهذه القوى الفطرية والاجتماعية والدينية بصورة اتجاهات وسلوكيات ضمن شخصية الفرد، وللمؤسسات الرسمية التي ينخرط فيها الفرد مثل المدارس والجامعات أو يعمل فيها مثل الإدارات الحكومية وكذلك للمؤسسات التي تمتلك سلطات تحديد المخالفات السلوكية ومحاسبة الأفراد المنحرفين مثل الحكومة والقضاء دور رئيس في التأثير على سلوك الأفراد بدرجة كافية لتشجيعهم على السلوك المهذب الحضاري ولردعهم عن التصرف بعدائية ووقاحة تجاه الآخرين، فعلى سبيل المثال يحاسب الفرد قضائياً في بعض المجتمعات الغربية لمجرد التهديد بالاعتداء.

البحوث والدراسات العلمية المتوفرة عن المجتمع العراقي قليلة جداً، ونتائجها الموثقة غير كافية لرسم صورة محددة وواضحة المعالم للشخصية العراقية، وحتى الدراسات الانطباعية معدودة، فقد اعتمد الدكتور علي الوردي على البيانات التاريخية ومشاهداته وخبراته الشخصية في تحليل المجتمع والفرد العراقي، وبسبب ندرة المعلومات الدقيقة حول هذا الموضوع فلابد من اعتبار الملاحظات الواردة في هذه المقالة مجرد افتراضات بحاجة إلى اختبار من خلال طرق المنهجية العلمية.

تدعوا القيم الدينية والاجتماعية السائدة في المجتمع العراقي للتعامل المؤدب والمهذب بين الأفراد، ويتولى الأبوان غرس هذه القيم الحضارية في نفوس أولادهما من خلال القدوة الحسنة والتوجيه والتحفيز، كما يتوقع من المؤسسات التربوية والاجتماعية الحفاظ على هذه القيم وإدامتها، ومع التسليم بأهمية الخيارات والتجارب الفردية في تبني وممارسة القيم الاجتماعية فإن التزام افراد المجتمع بالقيم الحضارية مرتبط إلى حد كبير بموقف المجتمع

منها، فكلما تبين للفرد وبطرق عملية بإن المجتمع يرضى عنه ويكافئه إذا مارس هذه القيم ويسخط عليه أو حتى يعاقبه إذا خالفها فإن من المحتمل أن يتعزز التزام وممارسة الفرد بها.

من الواضح بأن الكثير من العراقيين اجتماعيون ومؤدبون، ولكن في نفس الوقت يوجد بينهم أعداد غير قليلة من الأشرار غير المهذبين، وعلى امتداد تاريخ العراق الحديث ومنذ انسلاخه عن الدولة العثمانية توفرت أدلة عملية غير قابلة للشك على وجود وانتشار هؤلاء الأفراد غير المهذبين، ونكتفي بذكر أمثلة دالة على ذلك، من أبرزها مقتل أفراد العائلة المالكة العراقية، بما فيهم النساء والأطفال، والتمثيل بجثة الوصي الأمير عبد الاله بطريقة همجية، ولعل العراق البلد الوحيد عبر التاريخ الذي أصبح فيه حبل السحل رمزاً سياسياً علنياً، وطيلة حكم القوميين للعراق والذي دام أربعة عقود من السنين مارسوا بحق المعارضين وحتى المشكوك بولائهم أبشع صور الوحشية، والتي بلغت ذروتها في حملات الإبادة الجماعية اثناء العهد البعثي الفاشي، وقد برهنت الأعمال الإرهابية البربرية التي حصدت ارواح مئات الألاف من العزل الأبرياء في السنوات الأربع الماضية بطلان فرضية كون الطاغية صدام حسين ورهطه الأشرار الاستثناء الوقح على غالبية العراقيين من المؤدبين، والظاهر أن عدد الوقحين في المجتمع العراقي غير قليل، وكان لأفعالهم عبر تاريخه الحديث بالغ الأثر على أحوال هذا البلد وشعبه، ولا بد من التوقف عند هذه الظاهرة وتحديد أسبابها، ما يهمنا بالتحديد معرفة إن كان للمؤسسات الاجتماعية دور ما في ظهورها وانتشارها وسيطرتها.

إن مجرد وجود ظاهرة الوقحين بهذه الكثافة العددية والتأثير الواسع يحتم علينا التشكيك بصحة بعض المسلمات عن المجتمع العراقي ودور مؤسساته والقوى الديناميكية المؤثرة في اتجاهات وسلوك أفراده، ونبدأ بالتنشئة العائلية، هنالك افتراض عام بأن الأباء العراقيين يربون أولادهم على الأدب والأخلاق الحميدة، ومن المؤكد بأن الأباء العراقيين يجهرون بتمسكهم بقيم الأدب والتعامل الحضاري

بين أفراد المجتمع، والدليل على ذلك ما يتردد على ألسنة العراقيين في وسائل الإعلام ومجالسهم العامة والخاصة من كونهم جميعاً أخوة متحابين لا يضمرون لبعضهم البعض سوى الخير، ونجزم بأن العائلة العراقية تنشئ أبناءها على احترام وطاعة أبويهم والتعامل بأدب مع أقاربهم وجيرانهم، وهذا الأمر ضروري لضمان خضوع الأبناء لسلطة الوالدين، وبالذات الأباء، ومعاملتهم بكل احترام، وغالباً ما يستعمل الأباء أساليب عنيفة في غرس هذه القيمة في نفوس أولادهم، أي أنهم يعلمونهم على "الأدب" من خلال الضرب، الذي قد يكون أحياناً مبرحاً، كما يهان الأبناء ويسمعون الكلام القارص إذا بدر منهم ما يراه الأبوان قلة أدب، وقد لا يكون للقدوة الحسنة والقيم الدينية دور كبير ومؤثر في هذه العملية، فمن المحتمل أن يشهد الأولاد معاملة أبيهم لأمهم أو غيرها بطريقة "غير مؤدبة"، كما يندر أن ينصح الأباء أبناءهم بالحكمة القرآنية: إذا خاطبهم الجهلاء قالوا سلاماً، ونستبعد أن يدير عراقي خده الأيسر لمن يصفعه على الخد الأيمن، ولو فعل احدهم ذلك لصنفه الآخرون، بما فيهم أفراد عائلته، مع "المخنثين"، لذا يغلب على مفهوم التأدب في العائلة العراقية الطاعة للأبوين وأصحاب السلطة وما تتطلبها من خضوع بالقول والفعل.

يتبين من هذا التحليل وجود ازدواجية في القيم، فالمطلوب من الأبناء طاعة أباءهم ومعاملة أفراد أقاربهم الأكبر منهم سناً ومقاماً بأدب واحترام، وفي نفس الوقت فإن قيم المجتمع الاخرى تدعوا الفرد إلى الحفاظ على كرامته وحقوقه من تجاوزات الغير، ونتيجة الترسبات القبلية في الشخصية العراقية والاستهانة بسلطة القانون وضعف الوازع الديني يضطر الفرد للجوء لقدراته الذاتية لحماية نفسه من العدوان، فلو تعرض أحد المارة لاعتداء بالسب والشتم من قبل آخر فعلى الأغلب لن يجيبه تأدباً بـ"سلاماً"، أو "الله يسامحك"، كما لن يبحث عن شرطي ليشتكي إليه، بل سيبادل المعتدي بالمثل، وقد يستعمل يديه لإيقاف اعتداءه و"تأديبه"، ولو حضرت الشرطة لفض النزاع فلن نستغرب لو انهالوا على أحد الطرفين أو كليهما بالضرب لـ"تأديبهما" هذا بالطبع لو كان الطرفان متعادلين في القوة

والنفوذ، ولكن لو كان أحدهما مدني والآخر ضابط فعلى الأغلب سيسكت المدني على اعتداء الضابط لأنه الطرف الأضعف، وأثناء العهد الملكي عامل بعض شيوخ القبائل أفراد قبائلهم بقسوة مفرطة، ولم يكن بمقدور هؤلاء القبليون الرد على إهانات شيوخهم أو مقاضاتهم، ولحفاظ ماء وجوههم كانوا يرددون بأن الشيخ هو "أب القبيلة" كلها، ومن حقه أن يؤدب أفرادها بالضرب والصفع كما يؤدب الأب أبناءه، ونستدل من هذه الأمثلة على أن ميزان القوة يؤثر بصورة أكبر من قيم التأدب والاحترام المتبادل على السلوك الفردي والعلاقات بين أفراد المجتمع العراقي، مما يجعل من الصعب أحياناً التمييز بين التأدب بدوافع قيمية سامية والخنوع المقنع بالأدب.

كان الطاغية صدام حسين نموذجاً في الهمجية والوقاحة المفرطة، ويعزو البعض ذلك إلى بيئته العائلية التي ترعرع فيها، وقد استعمل هذه الصفة الشريرة في بلوغ أغراضه الأنانية بكفاءة عالية، فلولاها لما تمكن من التسلق بسرعة إلى قمة هرم حزبه الفاشي، كما استفاد منها في التخلص من منافسيه داخل الحزب والاستئثار بالحكم، ولكونه لا يمتلك أي مهارة قيادية اعتمد على وقاحته في سوق مئات الألاف من العراقيين إلى سوح القتل ضد إيران ولثمانية أعوام ومن ثم لاحتلال الكويت، ولأن العراقيين متطبعون على طاعة الأباء وكل الأقوياء تحملوا حصاراً اقتصادياً خانقاً من دون تذمر علني.

وبديهياً لم يكن بمقدور الطاغية الامساك بزمام العراقيين تحت ظروف حرجة لربع قرن من دون أتباع مخلصين، والغالبية العظمى من هؤلاء الأتباع الوقحين الذين يعدون بالملايين اختاروا الانضمام لحزب البعث طواعية، سواء اقتناعاً بأهدافه وسياساته أم طلباً لمصالح شخصية، ولم يجد الكثيرون منهم ضيراً في التصرف بوقاحة امتثالاً لأوامر الطاغية وحزبه، فلم يترددوا في التجسس على رفاقهم وجيرانهم والوشاية بهم، وشاركوا في حملات أجهزة المخابرات والأمن لمطاردة المعارضين والهاربين من الخدمة العسكرية، وتحملوا وزر سفك دماء مئات الألاف من العراقيين المدنيين في

حملات الإبادة الجماعية وعشرات الألاف من المقاتلين الإيرانيين المدافعين عن بلادهم ونظامهم الإسلامي، واقتراف أتباع الطاغية هذه الجرائم المنكرة دليل على ضعف أو انعدام تأثير القيم الإسلامية والاجتماعية السامية على سلوك شريحة كبرى من المجتمع العراقي، فهل كان العراقيون آنذاك على دين طواغيتهم؟ مع التسليم بقوة تأثير الحاكم على سلوك الرعية فإن من المؤكد بأن انصياعهم لأوامر الحاكم التي تخالف منظومة مجتمعهم القيمية ناجم عن ضعف تأثير هذه القيم، ولأن فرداً واحداً ومهما أوتي من قوة غير قادر على التحكم بسلوك آخرين فمن الواضح أن الطاغية لم يستحدث "الوقاحة" في سلوك العراقيين، بل استغل وجودها في بنية المجتمع وشجع على ظهورها وتطبيقها، ويرد إلى ذهني سلوك موظف عملت معه قبل مغادرتي العراق في أوائل الثمانينات، وقد بلغت الوقاحة به حد تنشأة ابنه على منتهى السلوك القبيح، ففي أحد الأيام اصطحب ابنه إلى العمل، وأمام زملائه المصعوقين راح يتبارى مع ابنه الصغير في تبادل أقذع السباب والشتائم، وعندما سألوه باستهجان عن ذلك أجاب بأنه تعمد تعليم ابنه العدائية والسباب لأن في المجتمع العراقي إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب، فيما بعد التحق هذا البعثي بوزارة الخارجية، ولعله الآن مسئولاً كبيراً فيها وابنه قائداً للإرهابيين الطائفيين، وتؤيد هذه الحالة وغيرها افتراضنا بأن هذه الوقاحة متجذرة في المجتمع، وبالتحديد في الرواسب القبلية، والتي عمد الطاغية صدام وحزبه على تنشيطها.

تقع المسئولية عن معالجة ظاهرة الوقاحة، التي عصفت ولاتزال بالمجتمع العراقي على كافة مؤسسات المجتمع، فمن المؤكد بأن على العائلة وبالتحديد الأبوين تنشأة أبنائهما على التعامل المهذب والحضاري مع كافة الناس، وفي نفس الوقت التحلي بالشجاعة والإقدام والجرأة في التصدي لأي محاولة اعتداء على حرياتهم وحقوقهم واللجوء للسلطات الحكومية والقضائية لفض الخلافات والنزاعات، ولكن نجاح العائلة في غرس هذه القيم السلوكية في نفوس أبنائها متوقف إلى حد كبير على أداء مؤسسات المجتمع

الأخرى لأدوارها المتممة، فمن الضروري أن تعي المؤسسات الدينية ضرورة توجيه الأفراد بالوعظ والقدوة الحسنة إلى ممارسة القيم الأخلاقية الدينية السامية، من خلال إحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وللمؤسسات الحكومية تأثير حاسم في تطوير سلوك الأفراد، فعندما تقدم الحكومة على الخضوع للأجنبي المحتل ومصالحة الإرهابيين والقتلة والعفو عن جرائم جلادي وجلاوزة البعث والتهاون في محاكمتهم وتنفيذ الأحكام الصادرة بحقهم وتوظف الانتهازيين والوصوليين وتسكت على الاختلاس والرشوة والفساد فإنها ترسل رسالة بليغة للجميع بأن القوي هو الأجدر بالطاعة ولو كان أجنبياً لا تجوز موالاته شرعاً، وتطمأن القاتل بأنه لن يقتل بعد حين، وبأن الإرهابي قد ينجو من العقاب بالتستر وراء حصانة برلمانية، وبأن للمختلس فرصة الفرار لبلد آخر قبل ملاحقته، والمزور سيعتلى منصباً رفيعاً مادام موالياً للحكومة، وبأن اقصر الطرق لحصول الموظف الحكومي على كفايته من المال وأكثر هي الرشوة، ولهذه كلها تأثير معاكس ومهدم للقيم الحضارية، بل إنها تعد استمرارية للنظام الطاغوتي السابق في تشجيعه للوقاحة في الفكر والسلوك، وسواء كان العراقي متديناً ملتزماً وبغض النظر عن مذهبه، أم ليبرالياً علمانياً، فلابد من تذكيره بأن الهدف الأسمى للرسالات السماوية وكذلك الحضارات الراقية هو حفظ كرامة وحقوق الأفراد وسيادة الشرع أو القانون، وكما أن كل الناس بما فيهم الأنبياء المرسلين خاضعون لشرع الله فكذلك ليس لأي قائد سياسي التلاعب بالقانون وحرمان فرد واحد من حقوقه، وعندما يتحقق هذا الشرط سيشعر جميع العراقيين بالأمن والاطمئنان وتختفي الوقاحة من المجتمع العراقي.

14 كانون الأول 2007م

الانحطاط الأخلاقي في المجتمع العراقي: حالة واقعية صادمة

كنت أظن أن ليس هناك أسوء من ذلك المحامي العراقي الذي وكلته للدفاع عني فانقلب علي، انحاز إلى خصمي، وتوكل عنه ليسلبني النزر اليسير من حقوق متبقية، لم يطلها بعد ظلم الحكام وطمع الأقارب، ولم يثنه عن ذلك كفران ذلك الخصم بكل ما يعتقده معظم العراقيين مقدساً، صدقا أو تظاهراً ونفاقاً، قيل لي بأن لمحامي الشيطان هذا مدونة يكتب فيها عن الأخلاق الحميدة، وهي صفاقة متناهية، ومكتب هذا المحامي لا يبعد سوى بضعة أزقة من مكاتب مراجع الدين في النجف، لكن جيرتهم لم تحمله على التمسك بالعدالة والنزاهة. في كل دول العالم تتضمن القوانين وقواعد المحاماة الأخلاقية ما يعرف بمبدأ النهي عن تضارب المصالح، الذي يحرم توكل المحامي عن خصم موكله الحالي أو السابق، لما قد ينطوي عليه من استفادة المحامي من معلومات موكله الأول التي حصل عليها لصالح قضية الخصم، ويرد ذكره في قانون المحاماة العراقي، وعلى وجه التحديد المادة (61) منه، ولكن هذا المحامي لا يكترث لقانون أو عرف أو أخلاق، فهو فعال لما يريده جشعه، ولا يسائله قاض أو نقابة.

بالأمس سمعت من مصدر موثوق ما يؤكد لي بأن هناك من هو أسوء أخلاقاً من هذا المحامي، أو بالأحرى هي محامية، وعراقية أيضاً، وكلتها زوجة مهجورة لخمس سنوات، لتدعي على زوجها بالتفريق ونفقة متأخرة لعياله، كل ما تطلبه لا يزيد كثيراً على خمسة ألاف دولار أمريكي، اثنان مؤخر صداقها وثلاثة نفقة عيالها، تأخر القاضي عن الحضور فجلست محامية الزوجة المظلومة تتحدث مع والد الزوج المدعى عليه، وتصادف وجود مصدري الموثوق بجوارهما، بعد أن نصحت المحامية الأب بإقناع ولده بدفع المبلغ المطلوب دافع الأب عن ولده لأنه على حسب تعبيره تخلص من عبء زوجته الأولى واتخذ زوجة ثانية ذات مال، على ما يبدو فإن ذكر المال قد حرك أطماع المحامية: أعطني خمسمائة ألف دينار (اقل من

خمسمائة دولار) وأنا سأتكفل لك بموكلتي وأضع أحفادك في حضنك.
هذا الكلام عن استعدادها لخيانة ثقة موكلتها وهدر شرفها المهني لم تهمس المحامية به لئلا يسمعه مصدري الموثوق أو غيره من رواد المحكمة، ولم تكتبه على قصاصة ورق بعيداً عن عيون المتطفلين، بل قالته جهاراً.
تشترط المادة الرابعة من قانون المحاماة العراقي لممارسة المحاماة أداء القسم التالي:
(اقسم بالله العظيم إن أودي عملي بأمانة وشرف وان احترم القانون وأحافظ على سر المهنة وأرعى تقاليدها وآدابها) ولكن هذه المحامية خانت الأمانة وأهدرت الشرف وخالفت القانون وافشت الأسرار، وأخلت بالتقاليد وناقضت كل مبادئ الأخلاق والقيم والأدب.
القضاء سلطة، من أصل ثلاث سلطات في المجتمعات الحديثة، وله دور حيوي في استقرار وتطور المجتمعات، من خلال اصلاح النظم القانونية وتطبيقها بنزاهة، ويمكن التعميم بأن المجتمع يكون صالحاً بدرجة صلاح نظامه القانوني والعاملين فيه، واستقلالية السلطة القضائية ضرورية، حتى لا تصبح أداة بيد الحكام وأصحاب النفوذ، ومن متطلبات نجاحها وحفاظها على استقلالها توفر آليات لتصحيح الانحرافات في مسارها وإصلاح أخطاء المنتسبين لها، وعلى الرغم من أن حالتين واقعيتين لا تكفيان للتوصل إلى تعاميم وأحكام لكنهما دالتان على وجود خلل في النظام القضائي والحقوقي في العراق، ويتخوف من نتائج هذا الخلل على تطبيق القوانين ومبدأ العدالة، وما ينتج عن ذلك من مشاعر سلبية تجاه القضاء والدولة والمجتمع.
ومن المفترض أن تكون قيم الإسلام مؤثراً رئيسياً في فكر وسلوك غالبية سكان العراق، لكن سلوك هذين المحامين لا يخالف مبادئ القضاء فحسب بل أيضاً قيم الدين السامية والأعراف الإنسانية، ولا يصدر إلا عن نفس خسيسة، تحركها الأطماع والشهوات الدنيئة، وتغلب أهواءها على قيمها إن كانت لها قيم أصلاً، فهي متجردة من مشاعر التعاطف الإنسانية، والتي يعتبرها علماء النفس الصفة الأساسية والمميزة لبني البشر، ولا تخلو منها أو تكاد سوى الشخصية السادية المنحرفة، وعلى الرغم من كون محامية الزوجة

المهجورة أمرأه لم تتعاطف مع موكلتها، ولوكان في قلبها قليل من رحمة الأمومة لأشفقت على الأبناء الذين هجرهم الأب وحرمهم من عطفه ورعايته، وهي فاقدة للشرف بكل معانيه إذ أبدت استعدادها لخيانة موكلتها من أجل حفنة من الدولارات.

المحامون من صفوة المجتمعات، فهم من أصحاب الشهادات الجامعية والخبرات المهنية والمعرفة التفصيلية بالقوانين المحلية والعالمية، ويعول عليهم وغيرهم من النخب في تطور المجتمعات وانتشالها من التخلف إلى التطور واحترام القوانين، وحدوث العكس من ذلك مؤشر مقلق، إذ بدلاً من أن تتولى هذه النخبة دورها الإيجابي في المجتمع نجدها تدفعه وبشدة نحو الهاوية، والعراق اليوم على حافة الهاوية إن لم تكن مرحلة السقوط قد بدأت بالفعل، قادته السياسيون فاسدون ومخربون ومختلسون وصفوته الاجتماعية قبلية ومتخلفة وتقسيمية ومؤسساته الدينية عاجزة أو طائفية مدمرة، وقد تفشت الرشوة والمحسوبية بين موظفيه الحكوميين، فلا يبقى من بصيص أمل بالخلاص إلا في نخبه المثقفة، ثم نفاجأ بهاذين المحامين وغيرهما، وقد وصلتهما عدوى الفساد واقتراف المنكرات من الذين لا يرون في هذا الوطن وأهله سوى فرص للنهب والاغتصاب والاستغلال.

لا تتعجبوا من سيطرة الإرهابيين ولا تتذمروا من تسلط الساسة الخائنين ولا من إثراء أصحاب المهن والنخب الفاسدين، وهي كلها مؤشرات على تدهور نظام القيم والأخلاق في المجتمع، وعندما تتدهور القيم والأخلاق فلا بد أن يضعف المجتمع ويفقد مناعته حتى أمام شراذم السفاحين المحليين والوافدين.

العراق كله بحاجة إلى صحوة قيمية وأخلاقية، فإن لم تكن أنفس العراقيين لوامة فلا يلوموا إلا أنفسهم لو تسلط عليهم شرارهم.

(للإسلام غايتان عظمتان هما الإحياء والإصلاح ووسيلة كبرى هي التعلم)

28 تشرين الأول 2014م

اسم التصغير والتحرمص وحقوق المستضعفين في العراق

لا توجد لغة أثرى من اللغة العربية في المصادر والمشتقات والمترادفات، فإن خاننا التعبير فلعلة فينا لا في اللغة، اسم التصغير مشتق لغوي، مثال هريرة تصغير لهرة، ويستخدم اسم التصغير للتقليل والتحقير ولأغراض أخرى، وليس هنالك من هم أكثر استعمالاً لاسم التصغير من أهلنا في جنوب العراق، وهم يحبذون استخدامه في اتصالاتهم بدرجة مثيرة للانتباه، ومرهقة للأعصاب أيضاً، تسمعه في أغانيهم الريفية، ومنها أغنية مشهورة لحضيري أبو عزيز "حميد يا مصايب الله" (برفع الحاء وفتح الميم)، بل إن اسم هذا المغني الريفي حضيري تصغير لحضري.

ولو قضيت ساعة أو أقل في محادثة جنوبي لتأكدت بأنهم يستخدمون هذه الصيغة اللغوية لحد الإفراط، وهذا ما شهدته أثناء طفولتي وصباي في الريف الجنوبي، فإذا طلب أحدهم رغيفاً من الخبز قال: أعطني خبيزة! ولو كان أحدهم مدعواً على مائدة طعام عامرة، وأراد من مضيفه مناولته قطعة لحم فسيطلب "وذيرة"، وهي تصغير لوذرة، والوذرة كلمة فصحى تعني قطعة لحم، ولكنه سيعتبر مضيفه بخيلاً جداً لو قدم له وذيرة لحم فقط. ومن المعروف بأن الحسوة هي القليل من الماء، لكن الجنوبي لا يطلب حسوة من الماء إن عطش وإنما "حسيوة"، فما هي الحسيوة" ؟ خمس أم عشر قطرات من الماء؟ ولماذا يطلب أقل القليل من الماء وكأنه في صحراء الربع الخالي لا في بلاد الرافدين؟ والعملة مقدار محدد من النقود، لا يزيد ولا ينقص إلا بقرار من البنك المركزي، الدرهم مائة فلس ومائة فلس تساوي درهماً، إلا عند الجنوبيين، فهم يصرفون الدرهم في تعاملهم إلى "دريهم"، وهو أيضاً يساوي مائة فلس،

لكنهم عند الطلب يسألون الدريهم بدلاً من الدرهم، ونكتفي بذلك من الشواهد الدالة على كثرة استخدام اسم التصغير في كلام الجنوبيين.

حرمص كلمة في اللغة الدارجة للجنوبيين، ومعناها التذلل والإلحاح في الطلب، لم أجد لها ذكراً في القواميس، ولعلها تحريف لكلمة حرمس، ومعناها الأملس، والحرمصة سلوك شائع بين الجنوبيين، يتعلمونها في الصغر في تعاملهم مع الوالدين وكبار السن والوجهاء، تتعدى حدود بر الوالدين والتوقير والمحبة، فالحرمصة سلوك تذلل الضعفاء أمام الأقوياء وأصحاب السلطة، ويفرضها غياب القواعد الواضحة للعلاقة بين القوي والضعيف، وهو أمر يفضله القوي، لكي يوسع هامش حريته في التعسف بمعاملة الضعيف، ومن المعتاد أن يحرمص الأبن والده لكي يحصل على ما يريد، وكذلك الزوج مع زوجها، والفلاح مع مالك الأرض، والقبلي مع رئيس قبيلته، والطالب مع معلمه، والمراجع مع الموظف.

تندرج تحت مصطلح الحرمصة مجموعة من السلوكيات اللفظية والجسمانية بين المتوسل والمتوسل إليه، ويغلب على سلوك المتوسل المظاهر المعبرة عن التذلل والاستعطاف، ومن أبرزها تكرار الطلب مرات عدة، من دون اكتراث لرفض المتوسل إليه، ومن ثم الاستعانة المعنوية بأرواح موتاه، وإن لم يكن ذلك كافياً توسل إليه بالأئمة وأولياء الله الصالحين، وهكذا حتى يلين قلب المتوسل إليه، أو يفقد المتوسل الأمل بالحصول على مبتغاه فينصرف باحثاً عن العون عند غيره.

المصيبة في استعمال الجنوبي اسم التصغير والحرمصة عند المطالبة بحقوقه السياسية والاقتصادية. في العهد الملكي كان هنالك حد أدنى من الديمقراطية، وكان للجنوبيين وزراء ونواب وأعيان، أقل من استحقاقهم العددي، وكانوا هؤلاء أشداء على أهلهم في الوسط والجنوب ضعفاء أمام بقايا العثمانيين المتسلطين على الحكم، ونادراً ما كانوا يطالبون بحقوق المحرومين، وإن طالبوا

استعملوا اسم التصغير والتحرمص، ويروى أن أحد أعضاء مجلس الأعيان من الشيعة سائل رئيس الوزراء نوري السعيد يوماً عن رفض قبول ثلة من الشيعة المتقدمين للكلية العسكرية، فانتفض نوري السعيد مستنكراً بقوله: وهل تتهمنا بالطائفية؟ بعدها أصدر نوري السعيد أوامره بقبول أولئك الجنوبيين في الكلية الحربية، غضب نوري السعيد يومها لأنه لم يتعود مطالبة المستضعفين ولو بأبسط حقوق المواطنة، وقد تسنى لي لقاء أحد هؤلاء الجنوبيين الذين توسط عضو مجلس الأعيان لقبولهم في الكلية العسكرية، فوجدته في أوائل سبعينيات القرن الماضي مجرد ضابط إعاشة في الفرقة الأولى في الديوانية، ولأن مطالب أهل الجنوب خجولة ومتوسلة كانت حصتهم من الوزراء والمناصب المدنية والعسكرية قليلة جداً، وتغير النظام من ملكي إلى جمهوري لكن حظ الجنوبيين القليل من السلطة والمناصب، بل ومن الحقوق الأساسية أيضاً، لم يتغير.

ثم جاء عهد الديمقراطية الأمريكية "الحقة"، أو هكذا يدعون، وتأملنا تطبيق المساواة والعدل في الحقوق، ولكنهم تظاهروا بذلك، واختاروا لتمثيل أهل الجنوب ثلة من المتطبعين على استعمال اسم التصغير والتحرمص، الذين ما أن تسلطوا حتى جمعوا لأنفسهم فأوعوا، وتنازلوا عن حقوق ناخبيهم خوفاً على أرواحهم وحفاظاً على مناصبهم، ولتذهب دماءهم وعذاباتهم هدراً. رضوا بأقل القليل من الحقوق، قبلوا بالمحاصصة الطائفية، ثم سلموا وهم صاغرون بالاحتلال الأمريكي والقيادة الجماعية والمصالحة مع الإرهابيين وبالفدرالية وعودة البعثيين، وكلما حذر مسئول سعودي أو أردني من هلال شيعي أو تهميش للسنة سارعوا لتقديم المزيد من التنازلات، حتى تضاءلت حصة المحرومين، وهم الأكثرية، من السلطة، وهكذا أصبح الأكثرية من السكان عملياً أقلية في المحاصصة الحكومية الطائفية والإثنية، وتأكد لنا بأن هؤلاء الحاكمين الجدد لا يقلون استهانة بحقوق المستضعفين ضمن المحاصصة الطائفية المقيتة من نوري السعيد، بل لعل نوري السعيد أكثر حرصاً منهم على مصالحهم، وبدلاً من استعمال عصا السلطة الغليظة مع الإرهابيين والبعثيين أهووا بها على رؤوس

الفقراء والمحرومين، الذين انبروا للدفاع عن الأبرياء العزل ضد بربرية الإرهابيين، وتصدوا للمحتلين الأوباش، فقد هال هؤلاء المتسلطون المثقلون بعقد النقص والجبن واسم التصغير واحتراف الحرمصة أن يخرج من بين المحرومين شجعان، يأبون ضيم المحتلين وهوان الإرهابيين.

آن الأوان لنبذ اسم التصغير وتحريم الحرمصة، والتخلص من هذا الوهن المرضي الكامن داخل النفوس، في الغرب يقيمون البرامج التدريبية لمساعدة الخجولين على تنمية ثقتهم بأنفسهم، يسمونها assertiveness training، أما المستضعفون فالواجب عليهم اكتساب وممارسة قيم البطولة والإيثار وإعلاء الحق وتطبيق العدالة وحذف اسم التصغير والحرمصة من قواميس حياتهم وسلوكهم

25 كانون الأول 2008م

لم يختار بعض العراقيين العبودية

ليس هنالك أثمن من الحرية، ولمن يظن أن الحياة نفسها أغلى أقول وما قيمة الحياة بدون حرية، والعبودية درجات، أسفلها كون الإنسان عبداً مملوكاً لإنسان آخر يتصرف به كما يشاء، وإلى زمن قريب كان استعباد الإنسان لأخيه الإنسان امراً مقبولاً لدى النظم العقائدية والاجتماعية والسياسية، وحتى الستينات من لقرن الماضي كان العبيد يباعون ويشترون في أسواق النخاسة العلنية في إحدى الدول العربية.

على مر العصور عرف العرب بممارستهم للعبودية، وكانت القبائل العربية في الجاهلية تستعبد الأسرى من القبائل الأخرى، و بعد الإسلام استرق العرب أعداداً كبيرة من سكان البلاد المفتوحة، وامتلأت بيوتهم بالعبيد من الذكور والإناث، وكان لهم تأثير سلبي على نشر وترسيخ الدعوة الإسلامية، وعلى تحضر وتطور العرب، فقد نفرت العبودية الناس من الإسلام، وساهم وجود العبيد في تأصل العلاقة التسلطية لديهم، والتي تتطلبها العلاقة بين السيد والعبد، فأصبحت جزءاً أساسياً من النسيج الاجتماعي العربي، فالسيد مهيمن تماماً على حياة عبيده، يفعل بهم ما يشاء، يتصرف بأجسادهم، ويحقر عقولهم، ويمتهن كرامتهم، وإذا تجرأ أحدهم على مخالفة سيده كان مصيره الجلد وأنواع أخرى من التعذيب الجسدي والنفسي، التي يراد منه ترويضه على الطاعة العمياء.

منذ العصر الإسلامي الأول تأطرت العلاقة الاستعبادية، ولم تك المقولة الشهيرة للخليفة عمر بن الخطاب: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً! دعوة لتحرير العبيد لأن أمهاتهم ولدتهم أحراراً، ، وعلى النقيض مما قرأناه وسمعناه من شروحات فليس المراد بها الاحتجاج على العبودية ولا الاستنكار لجلد العبيد، بل هي إشارة إلى واقعة تعرض فيها إنسان حر إلى معاملة العبيد، أي الجلد،

والمقصود بها كيف جلدتم عربياً حراً وعاملتموه معاملة العبيد وهو ليس بعبد، وكان جلد العبيد أمراً معتاداً ومقبولاً، وكما عبر عنه المتنبي بعد قرون بقوله: لا تشتري العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيد، وبالنتيجة ترسخ تسلط الإنسان على بني جنسه حتى درجة الاستعباد في نفوس العرب ومؤسساتهم الاجتماعية والسياسية، وليس بعيد عن ذلك معاملة الحكام لرعاياهم، فلا عجب أن يكون كل الحكام العرب متسلطين، يتصرفون بمقدرات أتباعهم كما السيد بعبيده.

كان لمؤسسة العبودية آثار مفجعة في النطاق الاجتماعي أيضاً، ولعل أخطرها تدني قيمة العمل اليدوي والإنتاج لدى العرب، ففي العصرين الأموي والعباسي، خلى نمط حياة سادة العرب من الجهد العقلي والبدني بعد صيرورتهم طبقة إقطاعية طفيلية تتعيش على ريع الأراضي المفتوحة، واستخدموا العبيد في الزراعة والمصانع مثل الملاحات البحرية في جنوب العراق، وقد أدت المعاملة الهمجية التي تعرض لها هؤلاء العبيد إلى ثورة الزنج وسيطرتهم على مناطق واسعة وتهديدهم استقرار الدولة العباسية في حينها، وما أن أثرى العرب المعاصرون بفضل أموال الريع النفطية حتى سارعوا إلى استقدام العمال والخدم من بلاد شتى، وكانت الحصيلة المرة لحلو العيش تدهور قيمهم الأخلاقية وضعف لغتهم العربية وتشوه علاقاتهم الاجتماعية.

أفسد وجود الجواري في العوائل العربية طبيعة العلاقات بين أفرادها، وأصبح من الصعب الادعاء بنقاء السلالة أو العنصر العربي لما اختلط بالدماء العربية من دماء لأقوام مختلفة نتيجة التزوج بالإماء والجواري، ولا عجب أن نجد اليوم ما يسمى بالأمة العربية خليط هجين من أقوام وأعراق لا يجمع بينها سوى اللغة، وغالبيتهم لا يتقنها ولا يكترث بذلك – يسمون أنفسهم الناطقين بالضاد وأجزم بأن معظمهم لا يميز بين الضاد والظاء – ولا يمارسون من عقيدتهم سوى الشعائر بعد أن عطلوا قيمها السامية وتركوا مكنونها وجوهرها لعبث أصحاب الأهواء من السلاطين ووعاظهم

والمهووسين بالسيطرة، يؤلونها كما يشاؤون، وبما تقتضي به مصالحهم، فتارة يجمحون بها إلى التطرف اللاعقلاني، وتارة أخرى يحرفونها لشرعنة تسلط حكامهم وجشع تجارهم وفساد مؤسساتهم.

أخفقت جميع المدارس الفقهية الإسلامية في فهم وتطبيق الموقف الإنساني الأصيل للإسلام من العبودية، وقد كان عدم ورود نص صريح بإلغاء ومنع العبودية بمثابة اختبار إلهي للجميع، وفشل الجميع في هذا الاختبار الصعب، فالإسلام كله نقيض العبودية، وكل مبادئه تعارضها وتشجبها، ولا يكون إسلام الفرد كاملاً مع ممارسته للعبودية - في رأيي، فكيف يمكن له الجمع بين العدالة والعبودية، وأي مساواة تبقى في ظل العبودية؟ ولماذا اكتفى المسلمون بتدوين الأحكام الشرعية التي تجعل من تحرير العبيد كفارة لأعظم الذنوب، ولم يستنتجوا من ذلك بإنها دعوة لإلغاء العبودية؟ وبأي منطق يمتدحون شراء أبي بكر لعبيد قريش المسلمين في أول الدعوة وتحريرهم ثم يمارسون العبودية بأبشع صورها، حتى يروي أحد المؤرخين بأن عبيداً لرجل مسلم أيام الخلفاء الأوائل انتفضوا على سيدهم فقتلوه ثم انتحروا جماعياً من شدة ما لحق بهم من تعسف وظلم. رفض السادة من القادة العسكريين والزعماء القبليين ورجال الدين دعوة الإسلام لتحرير العبيد لأنها تتعارض مع مصالحهم الاقتصادية، التي تكونت لهم بعد الفتوحات المسيرة بأطماع جاهلية، والمنفذة تحت غطاء رايات إسلامية، وأي حضارة تبنى بسواعد العبيد، والتاريخ يعلمنا بأن أحد الأسباب الرئيسية لتقوض الإمبراطوريات والدول اعتمادها على العبيد والمرتزقة بدءً بالأشوريين ومروراً بالرومان والعباسيين.

لازالت العلاقات في المجتمعات العربية، ومنها العراق، متأثرة بالإرث البغيض والثقيل للعبودية، والتسلط بصوره البسيطة والمتطرفة حاضر في كافة العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، يمارسه الزوج على زوجته، والأب على أبناءه، والمعلم على تلاميذه، ومعلم الحرفة على مريديه، ورجل الدين على أتباعه، ورئيس المؤسسة على مرؤوسيه، وبالطبع الحاكم على رعيته،

ولعملة التسلط وجهان، أحدهما الرغبة الجامحة في التحكم بالآخرين، وهي ما يعتبرها علماء النفس داءاً نفسياً خطيراً، والوجه الآخر، وهو مظلم كالأول، الخنوع والخضوع المخزي للتسلط،، والمتسلط أو صاحب الشخصية التسلطية authoritarian personality يذعن لأصحاب السلطة الأقوى منه، وفي الوقت نفسه يتسلط تماماً على من هم دونه على هيكل السلطة والقوة.

في ستينات القرن الماضي صدر كتاب للمفكر المعروف فرانز فانون بعنوان الهروب من الحرية Escape from Freedom، يسجل فيه صدمته مما آلت إليه أحوال بني جنسه الأفارقة، الذين ما أن استقلوا من أبشع أنواع الاستعمار الأجنبي حتى رزحوا طوعاً تحت نير أسوء الطغاة، واعتبر ذلك هروباً من الحرية، وهو ما ينطبق على العرب تماماً، الذين استبدلوا الاستعمار بحكام متسلطين، أمثال صدام حسين، وكل تابع وموالي ومعجب بصدام حسين وأمثاله له عقل ونفسية العبيد، أو ما يعرف بالإنكليزية slave mentality، وأسوق لكم مثلاً ذلك السعودي الذي قد بلغ به الإعجاب بصدام حد ملأ غرفة في بيته بصوره، كما أخبرني ابن عم له، وأمثاله كثيرون، وكلهم عبيد بالعقل والإرادة.

ترك سقوط الطاغية صدام فراغاً كبيراً في نفوس أشباه العبيد العراقيين والعرب، وأقدر بأنهم يشكلون غالبية عظمى من العرب، فلا عجب أن يسارعوا إلى نصرة سيدهم، إن كان بالدفاع عنه في وسائل الإعلام أو في محكمة الطاغية، والبعض منهم قتل نفسه وأهلك الأبرياء فداءً لسيده وصنمه، ونخطئ في افتراض بأنهم بشر أسوياء، لديهم إرادة حرة وعقول راشدة، وما تشدقهم بمقارعة قوات الاحتلال إلا شعارات زائفة، يقنعون بها لهاثهم وراء السلطة ورغبتهم المحمومة بإعادة صنمهم إلى قصره وتماثيله إلى ساحات العراق، ولا تصح تسميتهم بأيتام، بل هم اشباه عبيد طوعاً واختياراً، فضلوا الختم على عقولهم بالضلالة، وعطلوا حواسهم، وحكموا على أنفسهم بانعدام قيمتهم، ومن الطبيعي جداً أن يتحالفوا مع أمثالهم من عبيد الكهان الضالين والمضللين.

وصلتني رسالتك يا حليم

فاتحة رسالة حليم قوله: أنا كافر، وثنى عليها بسب الله عز وجل، قالها أمام شاهدين، ولعل زوجته سمعته من خلف الباب، المكان بيت حليم، شيده أبوه، هو البيت الثاني، أول بيت من مال أبيه ايضاً، لكن حليم كرهه، لماذا؟ ربما لقربه من الكاظمية، ينتظر حليم مغادرة والده "الحجي" وزوجة أبيه المنزل لزيارة الكاظمين ليالي الجمع ليستضيف عشيقته، ونزولاً عند طلب المدلل حليم شيد له والده بيتاً بديلاً في أرقى أحياء بغداد، واشترى له سيارة مرسيدس، ثم هرم والده وتدهورت أحواله الصحية فاستغل الفرصة اخوان حليم للاستيلاء على أرضه الزراعية، حتى سيارة أبيه القديمة باعها حليم وقبض ثمنها، بعض الكفار يبرون والديهم باستثناء حليم.

اختلف الشقيق الأكبر لحليم مع والده يوماً فأقدم على طرده من بيته الكائن في جنوب العراق، هو بيت والده سابقاً، وكل مال حليم وأخوته من مال أبيه لا من كدهم أو عرقهم، كانت ليلة شتاء باردة ماطرة، الأب في أواخر العقد السادس من عمره ومريض، ولم يكتفي أخ حليم بذلك، طارده حتى حافة الجسر الحديدي، هناك لحق به، ويقول الشاهد فيما معناه: شاهدت الابن يجر ابيه من اطرافه على قارعة الطريق الطينية نحو ضفة النهر وكأنه يروم إلقاءه في الماء ليغرق، فلما رأني توقف وانصرف على عجل، فمسحت عن وجه الأب الطين واصطحبته إلى منزل احد أفراد عائلته، هذا نموذج من اخلاق أخوة حليم، فلا تعجبون.

عندما اضر المرض بوالد حليم طلب منه نقله للمستشفى للعلاج فأجاب حليم: هل ملت زوجته من تمريضه؟ ثم مات الأب في البيت من وطأة المرض.

إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له، قول مروي عن الرسول الأعظم، لكن حليم بالتأكيد لا يكترث به، هو ولد عاق وكافر بالإسلام، ولم يدعو لأبيه بالرحمة يوماً ما.

لم تكن تلك المرة الأولى التي يسب حليم فيها الله، ومن عادات المقامرين سب الدين والخالق كلما خانهم الحظ، وحليم مدمن على القمار، ومنذ أكثر من نصف قرن بيته وكر لحلقات القمار التي تدوم حتى ساعات متأخرة من الليل، يشارك فيها اقاربه واصدقاؤه، ولعل تلك العادة القبيحة وراء إصابته بسكتة قلبية، اضطر بعدها للتقاعد المبكر، لكنه بقي على ولعه بالقمار، وتعلم في الآونة الأخيرة لعب القمار على الإنترنت.

كادت سمعة حليم الرديئة تفشل مشروع زواج أخيه، فعندما سمع خال الفتاة التي تقدم لخطبتها باسم الأخ نصح عائلتها بعدم الموافقة، وتبين أنه شاهد حليم اثناء زيارته لصديق في أمريكا، واخبرهم بأنه وخلال مكوثه لدى صديقه لم يغادر حليم طاولة القمار، كان حليم وقتها طالباً في جامعة أمريكية على حساب والده، وبدلاً من الدراسة تفرغ للقمار، وللتأكد من حسن أخلاق وسلوك الأخ سألت عائلة الخطيبة صديقاً، وهو بدوره سأل عنه فجاءه الجواب من أحد افراد عائلته بأنه ثاني إثنين فقط لا يلعبان القمار ويأتيان المنكر في العائلة، فوافقوا على زواجه من ابنتهم.

سؤل حليم: لماذا سميت ابنتك باسم مكروه بين طائفتك؟ فأجاب حليم: نكاية بهم، وهو يزدري كل المسلمين على حد سواء.

ترقى حليم لمنصب مدير عام في عهد الطاغية البعثي، وكل مدير عام حينئذ بعثي بالضرورة، ولكن حليم ذهب أبعد من ذلك، فقد كان له صحبة من المسؤولين في جهاز الأمن الصدامي، ترددوا على بيته وشاركوا في لعب القمار معه، وبوساطة هؤلاء الجلاوزة توسلوا لإطلاق سراح قريبين لهما متهمين بالانتماء لحركة معارضة للنظام.

ماذا تسمون الرجل الذي يشي بالمعلومات عن اقاربه المعارضين لأجهزة الأمن والمخابرات العراقية؟ تبين أن مجموعة من الأمن أو المخابرات البعثية قصدت بيت حليم لسؤاله عن ابن أخيه الشقيق، وابن الشقيق هذا متهم هو وسفير منشق على النظام البعثي بالاستيلاء على أموال سفارة عراقية، وبدلاً من أن يكتفي حليم بإخبارهم بأن ابن شقيقه مغترب ولا يعرف مكان سكناه تبرع لهم بمعلومة وهي أن له أخاً غير شقيق معارض، ودلهم على عنوان شقيقة المعارض، وبالفعل فقد استدعى جلاوزة النظام اخته لاستجوابها، وكان حليم لا يرى بأساً في حضورها بمفردها لكن زوجها أصر على الحضور، وكان الاستجواب في بيت حليم، وشهدت شقيقة حليم التي تقطن معه عليه إذ قالت: جاؤوا يسألون عن ابن شقيقنا فما دخل أخونا بالموضوع؟

يهددني حليم اليوم ويتوعد، فلا تستغربون، فقد أمن البعثيون الوشاة من العقاب، وهم بحماية البعثيين الجدد المتسربلين بمسوح الدين، الساكنين في المنطقة الخضراء، وليسب حليم الله من دون خوف أو وجل، فلا حامي لدين الله في العراق اليوم سوى الله، وحليم لا يؤمن بوجوده، والعراقي اليوم كما بالأمس يسجن لشهور إن ثبت عليه سب الرب وهذا شبه محال لكن الويل له لو أهان الحكام.

سيان يا حليم إن نصرك كل أفراد عائلتك وعشيرتك بل كل العراقيين، وعلى رأسهم الحكام المنافقون، وسيأتيك الجواب على رسالتك من عند رب السموات والأرض: [إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا]

10 نيسان 2014م

واويلتاه "مات الدين"!

أفي عهدك، وتحت ظلك، يا سيدي يا محي الدين؟ يا من أفنيت شبابك وعمرك في نصرة الدين، يا من استرخصت كل شيء من أجله، أنت - ومن غيرك- قدم نفسه قرباناً **عن صاحب** الدين؟ ثم كان كيدهم في تضليل، في بدر كنت أنت البدر، تدور حيث يدور من لو وضعوا الشمس في يمينه...، تقتبس نوره لتضيء به أحلك الدروب ظلمة، ومنك يا باب الإيمان سطع شعاع العلم. وفي الخندق كان الجمع كله- ما عدا أخاك وأنت- في هوة اليأس، فجعلت جسدك الطاهر قنطرة ليرتقوا عليها إلى الأمل يا ملاح سفينة النجاة، وكان الحب السماوي والنصر الآلهي لك وحدك يوم تكسرت الحراب وتطأطأت الرايات أمام باب خيبر، وبعد أن عصفت بالسقيفة أهواء الهوى للسلطة والقوة، وجمحت بالأولين والآخرين أطماع الغزو، وزينت لهم القناطير المقنطرة من تيجان كسرى وقيصر والمقوقس، ولعبت قريش بالخلافة، أتوك بما صار أبخس ثمناً من شسع نعلك...لولا عدلاً تقيمه، ومن يقيمه غيرك؟

يا "مات الدين"!

يا "مات الدين"!

يا "مات الدين"!

يرتفع الصوت، ويأتيه الجواب.

يالله! أسمه "مات الدين"

أيموت الدين في أيام محي الدين؟

كلا!

وقد وعت إذنك الواعية المعادلة الربانية: قتل مؤمن = قتل الناس جميعاً، فلو اشترك الناس جميعاً في قتل مؤمن لحق عليهم القتل، وهكذا يكون العدل كاملاً، بدون نقصان.

ليس في زمانك ينادى: يا "مات الدين".

وسرعان ما أقمت العدل يا محي الدين، ولا تقوم للدين قائمة بدون عدل، هكذا علمتنا، ولذلك تبعناك من بعد أخيك رسول الله الأعظم.

ثم أتى علينا زمان ملبد بغيوم القهر والظلم، طال أمده، حتى كاد الدين أن يموت كله، لولا وعد الله المتجسد في كتابه العزي، وهاهم أعداء الدين المنافقون، يخرجون علينا اليوم بدجلهم القديم-الجديد، تركوا كل السوح وجاؤوا لقتالنا، وأشباههم من قبل تحالفوا على حرب محي الدين لنفس الأسباب، فالظلم لا يجاور العدل، والخيانة لا تطيق الوفاء، ولا راحة للمتجبرين الطغاة بوجود الرحماء.

"مات الدين" آخر زفرة لرأس مقطوع .

"مات الدين" بكاء طفل مقطع الأوصال.

"مات الدين" صراخ أمرأه مخطوفة.

"مات الدين" أنشودة في مجالس عزاء.

"مات الدين" بطاقة في صندوق انتخاب.

"مات الدين" ؟ سؤال لكل رجال الدين.

إذا كان قتل مسلم موحد يزن في ميزان الرحمن الرحيم قتل الناس جميعاً، أي أنه يساوي قتل مليارات البشر في زمننا الحاضر، لذا ألا يكفي قتل واحد، وليس الألاف منهم لتقوم القيامة؟ نعم لأن ذلك من دلائل القيامة، فلماذا حرّمتم قيام القيامة، وفي كل ساعة قيامة في العراق؟

أدعوكم لنبذ الأحزاب التي أضاعت دمائنا وأعراضنا وآلامنا، وما مشروعها للمصالحة مع الأبالسة سوى الإشارة لهم بأننا ضعفاء، وأن دمنا رخيص، ورقابنا ممدودة للذبح، وأعراضنا مباحة، وأطفالنا ونسائنا لا حماة لهم، فهلموا أيها القتلة لأن الأمريكان أتوا لتنظيف بلاد النفط من قاذوراتها البشرية برميها على وطننا، وما نحن سوى طعم رخيص لاجتذاب القتلة المهووسين.

سموا أولادكم " مات الدين" لتمتلأ مدنكم وقراكم بولولتهم، ولتصبح "بلد" بلدة الأحزان، ولتعرف بغداد على حقيقتها، مدينة الحرب لا السلام، وحتى نميزهم لنسميهم "مات الدين الأول" والثاني والثالث...ثم ليكن منهم جيش "مات الدين"، فإذا أراد الأعداء التعجيل بالقيامة فليكن، وآنذاك سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

8 تموز 2006م

لماذا نهين رفات ودماء شهدائنا؟

لا يكاد يمر أسبوع حتى أشاهد مناظر دماء شهداء أبرياء عزل مسفوحة على قارعة الطريق، متخثرة داخل حافلات الأجرة الصغيرة، منثورة على تراب الطرق، حتى انطبع منظر الدم على عقلي، الظاهري والباطني، وأصبح ماثلاً في مخيلتي طيلة ساعات نهاري وأرقي.

ليس هناك أقدس من دم الشهداء، لذلك يدفنون بدون غسل أو كافور ولا حتى كفن، لكننا نعامل دماء شهداءنا كالطين أو قاذورات الشارع، ما أن تتصاعد أعمدة الدخان من تفجير انتحاري أو تفخيخي، في سوق شعبي أو مسطرة عمال أو مصلى، حتى يهرع عمال البلدية رافعين المكانس، ويلحق بهم موظفو المطافئ شاكين خراطيم المياه، ويبدأون عملهم المعتاد على الأشلاء الطاهرة والدماء الزكية، وسرعان ما يكنسوا ويجمعوا مخلفات الانفجار التي اختلطت بها أشلاء الضحايا تمهيداً لإرسالها إلى مكبات النفايات، أما الدماء فتوجه لها خراطيم المياه القوية لتسيل نحو فتحات المجاري مختلطة بأوساخ أبداننا وشوارعنا.

في فلسطين المحتلة إذا سقط صهيوني قتيلاً وتناثرت أشلائه ودمائه تضرب الشرطة نطاقاً حول المكان، ويستدعون حاخاماتهم لجمع الأشلاء، وتراهم منهمكين في لملمتها من على الأرض والحيطان والشجر والسيارات، أما الدماء فيرفعونها مسحاً بالقطن قطرة قطرة، وسواء كانت طقوساً دينية خاصة بهم أم تعظيماً لقتلاهم فلا يرفع الطوق عن مكان الحادث أو العملية حتى لا تبقى قطرة دم ولا قطعة لحم بشرية سائبة.

ما الذي يدفعنا للتعامل باستهانة بل حتى باحتقار للأشلاء الزكية والدماء الطاهرة لشهدائنا الأبرياء؟ أرجح بأنها رغبة دفينة للتخلص منها بطمرها أو غسلها حتى لا تعلق بذاكرتنا، يقال أن اللون الأحمر

بحد ذاته مهيج للأعصاب فما بالك لو كان الأحمر القاني دماً مسفوكاً لامرأة أو شيخ أو طفل رضيع.

نسارع لإخفاء بقايا الجرائم الارهابية لأنها تذكرنا بعجزنا المتواصل عن إيقافها ومنعها، ولأننا نشعر بتأنيب الضمير لتركنا أخوتنا وأخواتنا يسقطون ضحايا للعمليات الإرهابية كل يوم من دون أن نفعل شيئاً لردعها ومنع تكرارها، أترانا ناقصي الإيمان على مقياس مبادئنا الدينية التي تأمرنا برد العدوان وحماية المستضعفين من النساء والأطفال والشيوخ؟ أم نحن ناقصو الرجولة لأن أخوة لنا يقتلون كل يوم تحت أبصارنا ولا نحرك ساكناً؟ ولا بد أن يكون المادون رقابهم لسكاكين الإرهابيين الذباحين جنساً آخر من المخلوقات بانتظار عالم طبيعة ليكتشفهم ويسميهم.

حسناً نفعل بذر التراب والماء على دماء شهدائنا لأن دماء الأبرياء في بلادنا المنكوبة أصبحت عيوناً فوارة، وهي عيون مبصرة، ترى عجزنا وتخاذلنا، ونقرأ في حدقاتها اتهاما وعتباً وحيرة، لذا من الطبيعي أن نفقأها كنساً وغسلاً ودفناً بأقصى سرعة ممكنة.

بالأمس لم نحترم رفات أحباءنا الذين قضوا بأيدي جلاوزة النظام الصدامي المقبور، وبعد أن نبشنا عظامهم الطاهرة وذرفنا اليسير من الدمع عليها، أهلنا عليها التراب وانصرفنا للضحايا الجدد من أهلنا، في الصين يقدس الناس عظام أجدادهم، يشيدون لها مقامات في صدور بيوتهم، يتبركون بها، وإذا انتقلوا إلى دار جديدة وضعوها في صرر وحملوها معهم.

في الشهر الماضي دفنت أكثر من 300 جثة في كربلاء، لم يسر وراء جنائزهم مشيع واحد ولم يبك عليهم أحد، لأنها لأناس مجهولين، هكذا يقول البيان الرسمي، هل كان هؤلاء من مشردي الشوارع أم من اللقطاء الذين لا يعرف لهم أهل ولا أقارب؟ منذ القدم كان للناس طقوس خاصة بقتلى الحروب، فبعد انتهاء القتال تحضر نساء المحاربين من الطرفين إلى ساحة المعركة للبحث بين القتلى عن ابنائهن وأزواجهن وأخوتهن، وكان التقليد المتبع حتى بين الأقوام والقبائل الهمجية أن يتركن لنقل ودفن موتاهن من دون تعرض.

واجب علينا تقديس رفات ودماء شهدائنا لنرسل بذلك رسالة بليغة إلى الإرهابيين القتلة بأن أرواح أعزتنا هي الأثمن في الوجود، ومن يتجرأ على سفك دمائنا فموعده مع قصاصنا العادل آت لا محالة، اقيموا النصب التذكارية لشهداء الإرهاب في كل أصقاع العراق واحفروا عليها أسماءهم، لا تأخذكم رحمة ولا شفقة بالسفاحين وأعوانهم، لا تجعلوا شهدائنا سلعة في سوق السياسة تقايضون بها، ولا تشتروا بدماءنا المسفوحة هدنة من الإرهابيين، وكفوا عن التعامل مع دماء ورفات شهداءنا الطاهرة مثل قمامة أو ماء مسكوب على قارعة الطريق لأنها أقوى من فولاذ مصهور، اجعلوا منها أسلحة لمحاربة الإرهابيين، آنذاك سترون كيف ينتصر سلاح الدم الفولاذي على سيوف البغي الإرهابية.

24 حزيران 2007م

أيها العراقيون اتعظوا من مصير شاكر الخفاجي

سمعت بالخبر من قريبتي، التقيت بها في بلاد الغربة بعد فراق طويل، كعادة المهاجرين سألتها عن حال القريب والبعيد، وكعادة العراقيين المسافرين كان لديها نشرة أخبار، عرفت منها بأنها عملت في الجهاز المركزي للتقييس والسيطرة النوعية، آنذاك تذكرت مديرها العام، شاكر الخفاجي، فسألتها عنه، أخبرتني بأنه مات مقتولاً، على يد مجهولين، دقوا جرس بابه، فلما خرج لهم، سألوه: انت شاكر الخفاجي؟، قال نعم، فأمطروه بوابل من الرصاص.

بعد الوداع ذهبت إلى الانترنت طمعاً بالمزيد عنه، فعثرت على شاكرين لا شاكر واحد، أولهما العراقي المغترب المتهم بقضية كوبونات النفط ، وهو لا يهمني هنا، وإن كان يهم العراقيون أمره، والثاني هو المعني بهذه المقالة، شاكر الخفاجي، المدير العام السابق للجهاز المركزي للتقييس والسيطرة النوعية، في عهد الطاغية صدام.

عجبت إذ وجدت بأنه يحمل شهادة دكتوراة، وتساءلت مع نفسي: أي جامعة وضيعة منحته هذه الشهادة العالية؟ ورجحت أن تكون جامعة البعثيين التي اختص "أساتذتها" او بالأحرى منافقوها وطلابها بدراسة " الفكر القائد" لصنمهم الطاغية، والأدهى أن بعض المواقع أضفى عليه لقب أستاذ في جامعة بغداد، والتي كانت الشهادات العليا فيها حكراً على الحزبيين، واكثرهم معاقون علمياً وعقائدياً وضميريناً.

وحتى لا أظلم الرجل، خاصة وأنه قد صار بجوار صنمه صدام، في سقر، رحت أبحث في المصادر العربية والانجليزية عن نتاجاته العلمية، التي أهلته لحمل شهادة دكتوراة في الإدارة ولقب أستاذ جامعة، فلم أجد شيئاً، لا كتاباً باسمه ولا مقالة في دورية علمية رصينة أو حتى غير رصينة أو صحفية، بل لم أجد كلمة واحدة منشورة

خلفها وراءه، لا باللغة العربية، ولا الإنجليزية، أو غيرهما، فتوصلت إلى نتيجة بأنه حصل على الشهادة واللقب العلمي بقرار من النظام الفاشي البائد، الذي بلغ فيه العبث بالجامعات حداً دفع بقائده المقبور لتهديد أساتذة الجامعة بقراءة رسائل وأطروحات الطلاب، ليتأكد بنفسه من أن الأساتذة لم يعاونوا طلابهم بكتابتها، فهو – أي الطاغية – كان يدعي سفهاً بأنه ملم بكل المعارف العلمية والإنسانية والأدبية.

أعجب العجب أن تتهم المخابرات الأمريكية والموساد بقتله، وأنا أجزم بأن هذين الجهازين المعاديين للعراق ونهضته وتقدمه أحرص على ابقاء هذا الصفيق الجاهل على قيد الحياة ليعيث، هو وأمثاله، في العراق مزيداً من الفساد، لذا فمن السخف اتهامهما بتخليصنا من شروره.

من المؤكد بأن شاكر الخفاجي ليس من الشهداء الأبرار كما تصفه مواقع البعثيين، وما تزكيتها له إلا من باب إذا أتاك مديحه من ناقص فهي الشهادة بأنه ساقط.

لعلكم تتساءلون: لم كل هذا التحامل على شخص ميت؟ وهل هو من باب التشفي؟ أفرح لمقتل وإعدام أي بعثي، قتل وأفسد أو تعسف، لكن للفرح بمقتل الخفاجي نكهة خاصة، لأن من سوء طالعي أن تعرفت عليه.

أول مرة رأيت شاكر الخفاجي شعرت بالرثاء لوجهه القبيح، كان قبحه استثنائياً، ثم أدركت فيما بعد، بأن البشاعة فيه تتعدى ملامحه، فهي ليست فقط ناجمة عن قصر قامته، أو وجهه القميء المدور، مثل كرة قدم صغيرة مستهلكة، أو سحنته المليئة بالبثور، أو صوته الرفيع، تلك كانت ملامح تبعث على الرثاء، لكنك عندما تتعرف على نفسيته تجد نفسك وجهاً لوجه أمام جوهر القبح، فتحس بالغثيان.

المكان هو المركز القومي للتطوير والاستشارات الإدارية، أوائل الثمانينات، حيث ساقني حظي العاثر لأعمل فيه، بعد عودتي السريعة من انجلترا وحصولي على شهادة الدكتوراة، على حسابي

الخاص، يومها قال لي بعض الزملاء في الجامعة معلقين على قرار عودتي: أنت مجنون، ولعلهم كانوا محقين، ولكني لم أعد فقط للوطن بل للأم والأخت ولبقية الأهل.

في الأسبوع الأول من العمل قيل لنا هلموا للاجتماع فلحقت بالجمع من الموظفين، حيث خاطبنا الخفاجي بكلمات مقتضبة، أتذكر منها قوله بأن مشاركتنا في مسيرة محو الأمية يومها هو التزام "أخلاقي" علينا، وما أثار حفيظتي في وقتها كلمة " أخلاقي" فقاطعته لأقول بأني لم ألتزم أخلاقياً بالمشاركة في المسيرة، فبهت الرجل ولم يحر جواباً، فهو لم يتوقع أن يجرأ أحد على مقاطعته، فما بالك بالاعتراض على كلامه، وخيم على جو القاعة المكتظة بالموظفين الصمت قبل أن يتدارك الموقف ويجيبني بأنه سيشرح لي الوضع بعد الاجتماع، لم انتظره بعد نهاية الاجتماع وعدت إلى مكتبي، ولكني علمت فيما بعد بأنه كان مستاءاً مني، وبقيت مصراً على عدم الخروج في مسيرة محو الأمية حتى قَبَلَ الجميع مرغمين، بما فيهم المدراء البعثيين الساخطين علي، بالمشاركة فيها.

كان شاكر الخفاجي ضابط الأمن للمركز القومي، أي الآمر الناهي فيه، وكنت أنا مجرد موظف فيه، ولست منتمياً لحزب البعث، وتلك فضيلة ترفعني عالياً فوق هامات كل الملايين من العراقيين، الذين دنسوا شرفهم وتخلوا عن دينهم بالانتساب لحزب الشيطان البعثي، ولكني في المركز القومي آنذاك كنت أضعف البشر.

لم يضع شاكر الخفاجي فرصة للانتقام مني، وتوالت أعماله الدنيئة، يعاونه على ذلك كبار البعثيين في المركز مثل مدير عام المركز (الشيعي) الأعور الذي لا يحضرني اسمه، ونائبه ومدير البحوث المنافق وغيرهم.

أول مكرهم تكليفي بالحراسة الليلية في مبنى المركز، مثل بقية صغار الموظفين، كان ذلك حماقة ابتدعوها في بدء الحرب الغاشمة التي شنها النظام البعثي على إيران تنفيذاً لأوامر سادتهم الأمريكان والصهاينة والأعراب والمستعربين، وأخبرني مدير البحوث في أحد الأيام بأن الخفاجي توعد بإرسال تقارير كيدية عني إلى مديرية الأمن

العامة، فقلت له ليفعل، هذا المدير تفاخر أمامنا بتكليفه بتدريب العاملين في مديرية الأمن الواقعة قرب المركز، قلت له يوماً بأن الفساد قد ضرب بجذور المركز فاستشاط غضباً، وذهب إلى رئيسه المسيحي الذي أصدر عقوبة إدارية بحقي، ثم أمروا بطردي من المكتب الخاص لأشارك صغار الموظفين في قاعة كبيرة، حيث استقبلني المخابراتي النجفي، من العائلة الدينية المعروفة ورفيقه السني البذيء أبي عمر (لا أتذكر اسم عائلته والحمد لله) بالسخرية والاستهجان، وقد بلغني بأن هذا المخابراتي سابقاً والمتخلف عقلياً والمتحرش بسكرتيرة مسيحية يعمل حالياُ خبيراً إدارياً في الإمارات العربية، فهنيئاً للعربان المتخلفين بهذا الرديء مستشاراً.

كرهت شاكر الخفاجي، ولكن زميل آخر هو الذي جعلني أحقد على الخفاجي لدرجة أن أتمنى له شر ميتة.

تركت العراق في 1982م ليس بسبب شاكر الخفاجي وعصابته في المركز القومي، وإنما بسبب النظام الجائر وحربه، واستيقان أهلي بأني لو لم أغادر فسأنتهي في السجن أو على عود المشنقة، فغادرت العراق إلى المنفى ليضيع عمري بسبب ملاحقة شاكر الخفاجي ومدير المركز آنذاك الذي عينه صدام مكافأة له على قصيدة مديح فكانت خطابات إدارة المركز لا تنقطع مطالبة بعدم تجديد جواز سفري لقسري على العودة، فبقيت في المنافي اثنتي عشرة سنة من دون جواز سفر وبلا عمل، بفضل الخفاجي وشلته الذين ما أن انتهت حرب الخليج الثانية وشعروا بدنو أجل نظامهم حتى حزموا حقائبهم وولوا الأدبار إلى الخليج وكندا وغيرها.

قبل مغادرتي تحولت كراهيتي لشاكر الخفاجي إلى حقد أسود، والسبب هو ما سمعته من زميل انتمى للحزب للمصلحة اسرني يوماً بأنه وأثناء حضوره اجتماعاً للحزبيين في المركز- كان هو أيضاً منتمياً للحزب- بأن شاكر الخفاجي العائد إلى العمل بعد قضاء عدة شهور على الخطوط الأمامية للجبهة، أو هكذا كان البعثيون يتباهون كذباً، أخبرهم بقصة احدى أعماله البطولية.

أخبرهم شاكر الخفاجي، ضابط الأمن في المركز، بأنه كان ضمن مجموعة قتالية من الجيش الشعبي، التي دخلت مدينة قصر شيرين الإيرانية الحدودية، بعد احتلالها من قبل قوات العدوان البعثية، وفيما كان يتجول في شوارعها قادته قدماه لدخول أحد المنازل - وقلت في نفسي لعله كان ينوي جمع الأسلاب كعادة البعثيين اللصوص – ويضيف الخفاجي وعلى ذمة الراوي الذي لا يخامرني أدنى شك في صدقه، بأنه أي شاكر الخفاجي عثر في الدار على امرأة عجوز، طاعنة في السن، فقام بإخراج مسدسه وأطلق النار عليها ففارقت الحياة.

يمهل ولا يهمل

ومرت المهلة، عشرون سنة أو يزيد ثم جاء موعد الانتقام الآلهي

سلمت أيدي الذين قتلوك يا شاكر الخفاجي.

10 أيلول2010م

اذهبا أنتما وربكما فقاتلا إنا ههنا قاعدون!

معذرة يا سادتي لانقطاعنا عن زيارتكم، في السنة الماضية حاصرنا الزمهرير في البيوت، واليوم تمنعنا حمارة القيض عن الحركة، وبيننا وبينكم أنهار، وأهون علينا المشي شهور من عبور نهر واحد، خاصة وأن قطاع الطرق وغيرهم من الأعداء قد هدموا الجسور والقناطر وخرقوا الزوارق، ونحن كما تعرفوننا جيداً مستضعفون لا نجد ما نستعين به عليهم سوى الدعاء، وكانوا من قبل يقتلون أبنائنا في الحروب العبثية والمقابر الجماعية والسجون ويستحيون نسائنا للخدمة في البيوت والإدارات البيروقراطية والحقول، والفضل للعناية الآلهية التي أنقذتنا من آل فرعون العصر وفلقت بحر الظلم لتعبر بنا إلى بر النجاة، والحمد لله الذي أهلك الطاغية الفرعوني، من دون أن نحرك ساكنا لأننا تعودنا على الهدوء وضبط النفس وكتم الأنفاس تأسياً بأصحاب الكهف، والذي أهلك فرعون هذا الزمان قادر سبحانه وتعالى على قطع دابر كل أعدائنا، وما علينا سوى الدعاء والانتظار، ولو ألف سنة أخرى مما نعد فهي لا تساوي أكثر من يوم واحد عند الله.

لقد صنع السامري القادم من وراء البحار من ذهبنا الأسود عجلاً، وافتتن به الكثيرون من أهلنا، وصاروا يتنافسون على استرضاء السامري بالتعبد في محراب شركاته النفطية المقدسة والتقرب من خدام سدنتها من البدو، وقد نسى هؤلاء بأن خوار العجل هواء نتن يدخل من دبره ويخرج من فمه، ولو قتلوا انفسهم لكان خيراً لهم عند بارئهم من عبادتهم العجل النفطي، وها أنتم ترون يا سادتي بأننا محاصرون تماماً، ما بين فتنة السامري المضللة وبقية الفراعنة من السامريين وأشباههم الذين يريدون أن نعود في ملتهم لنعبد فرعوناً جديداً، وهم كدأب أسلافهم الفرعونيين يقتلون أبنائنا ويهتكون أعراضنا.

نحن لا نريد أن نرى الله جهرة، ولو أمرنا سبحانه وتعالى بذبح بقرة فلن نسأله ماهي ولا ما لونها، وحتى لا تتشابه البقر علينا سنذبح كل قطعاننا من البقر والغنم، ولن يكفينا انبجاس اثنتي عشرة عيناً لأن أقوامنا وقبائلنا وأحزابنا وحركاتنا تعد بالألاف، ولكننا نتوسل إلى الله بحقكم أن يمن علينا بنهرين آخرين حتى يكون لكل طائفة نهران خاصان بها، ونعاهد الله بأننا لن نطعمهما ولن نغترف منهما ولا حتى غرفة بأيدينا لأننا تعودنا على المياه النقية المعبئة في القناني بعد أن سأمنا وسقمنا من شرب مياه الأنهر الممزوجة بدماء جثث مقطوعة الرؤوس، ولكننا بحاجة لطعام واحد، وسنصبر عليه ولو كان دخناً، ولن ندعوا لأن يخرج لنا ربكم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها، لأننا لا نميز بين الذين هو أدنى والذي هو خير، ولا نريد أن نهبط مصراً فقد امتلأت كل أمصار الدنيا في شرقها وغربها وشمالها وجنوبها بالملايين منا، وهم كدأب يأجوج ومأجوج من كل حدب ينسلون.

بعد أن أمدنا الله بأموال وبنين وجعلنا أكثر نفيراً كان واجباً علينا أن ندخل الأرض التي كتب الله لنا ولكننا تعذرنا بأن فيها قوماً جبارين، ولن ندخلها حتى يخرجوا منها، وقلنا اذهبا أنتما وربكما فقاتلا إنا ههنا قاعدون، لذا كتبت علينا الذلة والمسكنة، وأشد من نخشاه أن يعذبنا الله بالتيه أربعين سنة أخرى بعد حوالي أربعين سنة من التيه البعثي، وإن كان لا مرد لقضائه فأملنا أن يظللنا بالغمام لأن أشعة شمس هذا الزمان مهلكة وسنحتاج إلى كميات كبيرة جداً من المن والسلوى.

17 حزيران 2007م

العراقي لا يأكل لحم الكلاب يا بوش ويا حكام العراق

قابلتها في ستينات القرن الماضي، سيدة عراقية، قوية الشخصية، أخت الرجال بحق وحقيق، لا تتردد في إبداء رأيها، وإن لم ينفع الكلام في تعديل المعوج استعملت يداها، تعودت على الاصطياف في جبال لبنان كل سنة، تقضي شهرين من كل عام في أحد فنادق بحمدون بصحبة ابنتيها، يذكرون لها قصة مثيرة مع أحد سواق الأجرة، ويعرف زوار لبنان في تلك السنين مدى جبروت بعض سواق الأجرة، وكانت القصص المتداولة والمنشورة في الصحف عن بقرهم بطون ركابهم الرافضين دفع كامل الأجرة أو لغيرها من توافه الأسباب تبعث الرعب في أوصال المواطنين والسائحين، وما أكثر المشادات الكلامية بينهم حول أولوية المرور في شوارع بيروت الضيقة والمزدحمة، والتي تتفاقم أحياناً إلى قتال بالسلاح الأبيض أو الناري ، وما يهمنا هنا بالذات سائق الأجرة سيء الحظ الذي أهوت عليه سيدتنا العراقية بصفعة مدوية، بعد أن اسمعها كلاماً خشناً، عن سوء فهم لا نية، ولكن سيدتنا لم تدع مجالاً للسؤال والاستدراك فعالجته بصفعة قوية، فاجأته وأذهلته، وقبل أن يستعيد رباطة جأشه وينقض عليها بموسى حلاقة أو يطلق عليها النار من مسدسه، حال بينه وبينها زملائه من سواق سيارات الأجرة وستطرقون، كان زملاء المهنة والكدح عارفين ومعجبين بأخلاق سيدتنا العراقية التي تأبى الضيم، ولا تتوانى عن انتزاع حقها بيدها، وفي اليوم التالي أقنعوا زميلهم المصفوع على اصطحابهم إلى فندق السيدة العراقية لتقديم الاعتذار لها.

جمعني وإياها مجلس ضم ابنها وابنتها وآخرين، كانت تجلس مقابلي عندما قدم لي أحد الجلوس قطعة علك للمضغ فرددتها شاكراً، رمقتني بارتياح وقالت: "العراقي لا يعلك!"، فرحت لأني نلت

رضاها، ولأني عراقي متميز عن غيري في نظرها ولو بعدم مضغ العلك أمام الناس، ثم وقع بصري على ابنها الجالس بجانبي فإذا به يمضغ العلك بهمة ونشاط الأمريكان، وقلت لنفسي لعل المقصود بالملاحظة هو ابنها الذي ترك العراق وأهله منذ سنين واستوطن أمريكا وتزوج بأمريكية، فاقترف أسوأ المعاصي في نظر إمه العراقية الفخورة بقيم وتقاليد مجتمعها، بدا أبنها غير عابئ بانتقادات أمه اللاذعة، بل تمادى في المضغ بصوت عال. من قبل ابتليت هذه السيدة بزواج ابن آخر بسيدة سويسرية، جاء بها زوجها لزيارة أهله في العراق، وبعد أيام قلائل ودعتهم لا بالشكر على حسن الاستضافة والترحيب والهدايا الثمينة بل بوصفها لهم بكلمة واحدة هي:sauvage أي متوحشين أو متخلفين بالفرنسية.

يتذكر معارفها كلمات مشهورة لها، كانت يومها تقرأ صحيفة لبنانية، وكانت معظم الصحف اللبنانية تخصص إحدى صفحاتها لأخبار الحوادث، ولعلها الصفحة الرابعة، إن لم تخني الذاكرة، استرعى اهتمامها خبر القبض على قصاب، تبين بعد التحقيق والاستجواب بأنه يبيع لحم الكلاب لزبائنه، وما أن أكملت سرد ما قرأته على جلسائها حتى علقت بقولها: العراقي لا يأكل لحم الكلاب!

لا تكتمل صورتها المخزونة في الذاكرة من دون ذكر كفنها، الذي لم يكن يفارقها في ترحالها، وأجزم بأنها كانت الوحيدة التي تحمل كفنها معها إلى المصيف، ولا أخفي جهلي المطبق بسبب ذلك، لعلها تذكرة للنفس بأن الموت يأتيها ولو كانت مصطافه في جبال لبنان السامقة، أو لأنها تريد أن تدفن في كفن عراقي!

لو كانت هذه السيدة القوية المسالمة على قيد الحياة لنصحت بوش بالرحيل سراعاً من العراق قبل أن يركل مؤخرات جنوده العريضة إلى خارج بلادهم لا الإرهابيون القتلة ولا البعثيون المجرمون حلفاء أمريكا السابقون بل المستضعفون المؤمنون الذين طردوا البريطانيين من البصرة، ولطلبت من بوش نبذ أفكاره الغبية حول إعادة تكوين العراق على غرار تجربة أمريكا في اليابان بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية لأن العراقيين، وعلى عكس

اليابانيين، أمة أصيلة لم تستورد ثقافتها وديانتها معلبة من الصين، والعراق على طرفي نقيض مع الكوريين الجنوبيين لأنهم اولاً لا يأكلون لحم الكلاب وثانياً لأنهم آخر من يرضى بوجود قواعد للأمريكان أو غيرهم على أراضيهم، ولا استثني من ذلك سوى العراقيون الذين يتعلقون بثياب الجنود الأمريكان خوفاً من انسحابهم المفاجئ و ينادون بإقامة روابط استراتيجية مع الحكومة الأمريكية والسماح لها بإقامة قواعد عسكرية دائمة، والذين لا يستنكفون من المصالحة مع الإرهابيين والبعثيين ذابحي البشر في سبيل الحفاظ على مناصبهم التسلطية، لذا لن نعجب لو أكل هؤلاء المستثنون من العراقيين لحم الكلاب.

12 أيلول 2007م

العراقيون في الاقامة الجبرية

أفقت قبل يومين من حلم غريب، اقتصر على خبر، تنازل سلطان عمان عن الحكم، واقرار النظام الجمهوري فيها، أضغاث أحلام، لأن تخلي السلطان قابوس عن الحكم شبه مستحيل، وهو الذي يرفض حتى تسمية ولي عهد له، شطط من عقلي الباطني، شجع عقلي الواعي على التفكير بما هو أقل استحالة.

وثيقة الشرف آخر ما تفتقت به عقول ساسة العراق، تعويذة سحرية هكذا حاولوا اقناعنا، ولكن سرعان ما ثبت بطلانها، ولا يفلح الساحر حيث أتى، لكن ذلك لم يكن كافياً لدفع العراقيين إلى التمرد على فراعنة السياسة، ولو بمظاهرة واحدة، للتعبير عن رفضهم للواقع المرير وسخطهم على الساسة الفاشلين المخادعين وتخوفهم مما يخبئه لهم المستقبل القريب من احتمالات مرعبة.

التغيير الجماهيري، سواء سميته ثورة أم غير ذلك، لم يعد احتمالاً مستبعداً، حدث مرة في تونس ومرتين في مصر، وخلال مدد زمنية قياسية.

وعلى الرغم من انسداد الأفق العراقي بالدماء والأشلاء لا أتوقع خروج مليوني للعراقيين مطالبين بالتغيير ورفضاً للإرهاب، لسببين رئيسيين: التطبع والإقامة الجبرية.

العراقيون متطبعون على الرهبة من السلطة الحاكمة، التي تعاملت معهم وعلى مر الأزمنة بالقهر والتعسف والتنكيل، وتكفي نظرة سريعة على تاريخهم الحديث لتؤكد ذلك، فكل تغيير من فعل أدوات السلطة نفسها، أي القوى الأمنية من جيش ومخابرات، التي تنشق على السلطة الحاكمة وتحل محلها، لذا انتظر العراقيين معجزة لتخليصهم من الطاغية البعثي، وهم اليوم ينتظرون فرجاً من نفس النوع.

كل العراقيين اليوم في إقامة جبرية، يقبع كل واحد منهم ضمن أسوار طائفته أو فئته الإثنية، يرى بمنظار الطائفة أو الفئة، ويدرك كما تدرك، وينعكس ذلك في أفكاره وقراراته وتصرفاته، فهو وإن كان لا يرتبط بالمالكي أو النجيفي أو برزاني بصلة قرابة أو انتماء عشائري أو تنظيم حزبي أو مصلحة مشتركة لكنه سينحاز له عندما ينتقده عراقي آخر من فئة طائفية أو إثنية مختلفة، لذلك ليس مستغرباً بقاء التحالف الوطني الشيعي على الرغم من الصراع المستمر بين أطرافه الرئيسية الذي بلغ حد التقاتل في الأمس القريب والحرب الإعلامية الشعواء في الوقت الحاضر، ولا يختلف الوضع كثيراً ضمن الائتلافات السنية والكردية.

وهذا النمط الفكري والسلوكي موجود حتى لدى المتضررين من هؤلاء الساسة ونظامهم الفاشل، لذلك العراقيون بصورة عامة تحت الإقامة الجبرية وبرضاهم ضمن طوائفهم وأعراقهم، ولن يتحرروا من ذلك إلا بتغيير النظام الطائفي التحاصصي واكتساب الثقة بالنفس، وحتى ذلك الحين سيبقى الساسة صامدين في منطقتهم الخضراء، يعبثون بحاضر ومستقبل البلاد.

التغيير المطلوب في الوضع العراقي أقل من معجزة بكثير وأكثر من حدث عادي، فهل سيقدم عليه العراقيون أم ينتظرون الظروف القاهرة التي ستفرضه عليهم؟

29 أيلول 2013م

(للإسلام غايتان عظمتان هما الإحياء والاصلاح، ووسيلة كبرى وهي التعلم)

العراقيون يتجملون في لبنان

الجمال مفهوم متعدد الجوانب، اجتماعي وفلسفي وفني، تتفاوت معانيه، وتتباين مقاييسه، حتى التناقض حياناً، فما يعده البعض جمالاً فذا قد يستقبحه آخرون، لذا هو مفهوم نسبي، لكنه حاضر في كل المجتمعات، من البدائية حتى المتحضرة، تزخر لغاتها بمصطلحاته، ويعكس تراثها الأدبي والفني أهميته.

الجمال في كل مكان، وحتى في الصحراء القاحلة، وإذا كان البدوي يجد في صحراءه جمالاً، فالعراقي لديه اسباب مضاعفة للتغني بجمال بلاده، التي أفاء الله عليها بنعم لا تعد ولا تحصى، لذا قد يختلف عراقيان حول كل شيء ما عدا صورة الوطن في ذهنيهما، فالعراقي لا يطيق سماع كلمة انتقاد واحدة تقال في حق موطنه، ويحرص على إيجابية صورته، في أعين الآخرين، إلى درجة التعصب الأعمى أحياناً.

أثناء زيارتي لبيروت مؤخراً عادت بي الذاكرة إلى أيام الدراسة فيها، وفي ستينات القرن الماضي بالتحديد، حينما كان حماس العرب وتفاخرهم بأعلى الدرجات، وكما هو معروف فإن من أساليب التفاخر والتجمل عندنا الانتقاص من الآخرين، لذا كثيراً ما كانت القبيلة تتفاخر بالتعالي على غيرها من القبائل وتحقرها، ومن المفجع أننا لا نزال نحمل بعض الطبائع والعادات القبلية، وهي المسيطرة على تفكيرنا والمحركة لسلوكنا، ولو كنا مسلمين ملتزمين بالأوامر الآلهية، لما سخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم، ولكننا قبليين حتى العظم، لذا يسخر ويهزأ بعضنا من البعض.

لسخرية العرب من العرب نمط معين، يكاد أن يكون مكرراً حتى الرتابة المملة، يبدأ أخوك العربي حديثه عن العراقيين بامتداح شجاعتهم، ثم يستدرك بأنهم في حرب ضياع فلسطين في 1948م كانت قواتهم تبرر تقاعسها عن الهجوم على الصهاينة ونجدة

الفلسطينيين بترديد "ماكو أوامر"، اي أن الأوامر لم تصدر لها من قيادتها في بغداد، فماذا تقول للفلسطيني الذي ضاع وطنه بسبب وعود لم تحترم وأوامر لم تصدر؟ ثم لا ينقضي وقت طويل حتى يتطرق أحدهم لمحكمة الثورة آبان حكم عبد الكريم قاسم، مشيداً بمهارات رئيسها المهداوي الأدبية والبلاغية، ومثنياً على مواهبه الكوميدية، وبنفس الوقت منتقصاً من أساليبها القضائية والإجرائية المتناقضة مع مبدأ العدالة وقواعد القضاء، ومستهجناً تهديد المتهمين بالسحل، فلا تجد ما تدافع به عن وطنك سوى التذكير بهوية المهداوي السياسية.

يصبح الدفاع عن جمال الوطن أمام هجمات المستهزئين صعباً عندما تكون أنت ساخطاً على قرار أصدرته حكومتك، وأفضل مثال على ذلك قرار لحكومة البعث في عهد أحمد حسن البكر، قضى بمغادرة جميع العراقيين في لبنان خلال أيام معدودات، وتنفيذاً للأمر سارع الألاف من المصطافين العراقيين لحزم حقائبهم، أما نحن الطلاب فبقينا متحيرين حتى وصل الخبر باستثنائنا من الأمر التعسفي، وتعاطف معنا أخوتنا العرب حتى عرفوا السبب، فقد قيل أن " الأب القائد" استاء من معاملة السلطات اللبنانية لولده الذي كان يعربد في أحد الملاهي أو الحانات الليلية فقرر معاقبة الحكومة اللبنانية بسحب المصطافين! وقبل أن ينسى العرب هذا الموضوع انتشر خبر اختطاف و "صندقة" المعارضين العراقيين ونقلهم إلى بغداد، فكان موضوعاً جديداً للتندر والسخرية، مما تطلب منا تذكير الأخوة المستهزئين بأن هذه الحكومات المتسلطة لا تمثل العراقيين، ولا تعبر بقراراتها عن قيمهم وأعرافهم، بل هي على النقيض من ذلك، والعراقيون براء من هذه الحكومات، ولكن الذئب وعلى الرغم من براءته من دم يعقوب يظل في دائرة الاتهام.

تقول الأغنية العراقية: تفرحون أفرح إلكم، ولكن الأخوة العرب فرحوا لأحزان العراقيين نتيجة المذبحة التي نفذها النظام البعثي للإيرانيين والعراقيين، لأنهم وبسبب اختلال الرؤية وندرة البطولة بينهم تصوروا القاتل بطلاً، وصوروا المجزرة مفخرة، ثم توالت هزائم

العراق، في الكويت والحصار والاحتلال، والعرب ما بين شامت وساخط، وكان خذلناهم الأكبر عندما استسلمت قوات محبوبهم الطاغية لقوات الاحتلال الأمريكي، وكعادتهم القوا باللائمة على العراقيين، متناسين بأن الطاغية هو الذي أوهن قوة العراقيين، وساعد بذلك المحتلين على بلوغ أهدافهم، تقول الأغنية العراقية: لاموني كل الناس شلهم عليه أضحك جذب والنار تشتعل بيه، النار تشتعل بالعراق والعراقيين لكنهم لا يضحكون، سوى قلة، يتجملون في لبنان، ليضحكوا قليلاً ويبكوا كثيراً.

كنت اظن ان العراقيين في شغل شاغل عن مباهج الدنيا، فإذا كنت قد فجعت بعشرة قتلى، تسعة من الأقارب وصديق واحد، راحوا ضحية الإرهاب المبرمج امريكياً والمنفذ عربياً ومحلياً، فلا بد بأن بقية العراقيين مثلي يندبون أحبائهم، وهم لاهون عن زينة الحياة الدنيا، لذا فوجئت بما رواه لي سائق سيارة اجرة في بيروت، عن العراقيين، من الاناث والذكور، الذين يقصدون بيروت هذه الأيام لا للسياحة أو للتبرك بزيارة أرض الجنوبيين الأبطال، وإنما لإجراء عمليات تجميل، لتصغير الأنف حتى يكون شبيهاً بأنف المغنية الفلانية أو لزرع الشعر وغيرها من العمليات التجميلية المعروفة، سألته إن كانت معلوماته دقيقة، فأجابني بأنهم عراقيون، لا ريب في ذلك، وهو يعرف هذه الحقيقة، لأنه يعمل في النهار في عيادة لعمليات التجميل، ويقسم بأن معظم روادها عراقيون.

نسخر من الخليجيين الذين يتهافتون على عيادات جراحي التجميل ونتهمهم بالإسراف والتبذير وقد اتخمتهم عوائد النفط والثروات الهائلة، ولكن كيف يجرأ عراقي في هذه الأيام على حتى التفكير بعملية تجميلية ومن حوله يتساقط اخوة وأحبة صرعى الإرهاب والاحتلال والمرض والفقر، وهل يزيل مبضع جراح التجميل ذل الاحتلال، الذي يرهق وجوهنا، المشوهة بفعل التفجيرات وسكاكين الذباحين، وهل يستطيع أبرع الجراحين إزالة الغشاوة التي أسدلتها على أبصارنا التعصبات الطائفية والاثنية والقبلية

والمناطقية، وهل يعيد أنف مستقيم أو شعيرات فوق الرأس للنفوس صفوها ويمحو الآهات والحسرات من القلوب؟

هنالك أولويات للجمال، وقبل أن يتجمل العراقيون بتغيير ملامح وجوهم واجسامهم عليهم العمل على تجميل نفوسهم وأفكارهم، والبداية في التخلص من الاحتلال، ومداواة الطائفية بالعودة للإسلام الأصيل، ونبذ العصبية القبلية لأنها وكما وصفها رسول الإنسانية "منتنة"، والتعامل بحزم مع الإرهابيين والمفسدين والمرتشين، آنذاك سيفيض صفاء النفوس على ملامح الوجوه فتصدأ مبضع جراح التجميل.

30 تموز 2009م

تجارب المنافي والسلوك المنحرف لساسة العراق

يصاب المراقب لسلوك بعض ساسة العراق بالحيرة والصدمة وخيبة الأمل، إذ لا تنطبق قراراتهم السياسية على شعاراتهم المبدئية، وتشذ سلوكياتهم عن ثوابتهم الدينية والمذهبية، وتتباين تصريحاتهم باختلاف المواقف والحالات، والغالب عليهم كثرة المتحول وقلة الثابت، وهو سبب تحير الناس في فهم شخصياتهم وسلوكهم السياسي، ويعزوا البعض ذلك إلى متطلبات العمل السياسي، فيما يشكك آخرون في ولاءهم واخلاصهم لأهدافهم وشعاراتهم أصلاً.

بهدف الوصول إلى تفسير وفهم أفضل للسلوك السياسي لبعض حكام العراق ينبغي تحري هذا السلوك قبل سقوط النظام البعثي التسلطي، فإن تبين أنهم لم يخلصوا للمباديء في نشاطهم السياسي وغيره من جوانب سلوكهم آنذاك فإن من الصعب أن نتوقع منهم مقاومة اغراءات السلطة والتمسك بالقيم بعد وصولهم للحكم.

قبل العودة للعراق وتسنم المناصب السياسية سكن كثير من ساسة العراق في المنافي، حيث قضوا فترات طويلة من أعمارهم، ولأكثر من عقدين من السنين في بعض الحالات، وكان لهم نشاط معارض، ضمن الحدود التي تفرضها دول الاستضافة أو اللجوء، تركز غالباً على الأمور التنظيمية والدعائية الخاصة بكل تنظيم، وتوطدت بينهم وبين جهات سياسية وأمنية في تلك الدول علاقات خاصة.

في هذا المقال سيقتصر الاهتمام على الحركات المعارضة للنظام الصدامي التي اتخذت من سوريا مقراً لها، وهي متنوعة في ايديولوجياتها وفكرها، ضمت الإسلاميين والعلمانيين، العرب والأكراد، السنة والشيعة، ومن ضمنها حزب الدعوة والناصريون

والشيوعيون والبعثيون المرتبطون بالقيادة السورية وجماعة صالح جبر، كما أسست جماعات أخرى مثل المجلس الأعلى والأحزاب الكردية مكاتب لها في العاصمة السورية.

تواجدت التنظيمات العراقية المعارضة في سوريا باختيارها، وكان بمقدورها اتخاذ مقرات لها في دول أخرى مثل إيران أو دول أوروبية، لذا كان اختيارها الإقامة والعمل السياسي في سوريا بمحض إرادتها وليس أمراً مفروضاً عليها، وفيما عدا البعثيون العراقيون المنتمون لما يعرف بالقيادة القومية لحزب البعث السوري لم تكن التنظيمات العراقية المعارضة تابعة للنظام السوري أو تأتمر بأوامره بصورة تلقائية.

لم تمتلك هذه التنظيمات درجة كافية من التأثير في الوضع العراقي الداخلي بحيث تشكل ورقة ضغط رابحة بيد النظام السوري لاستعمالها ضد غريمها في بغداد، لذا لم يكن بمقدور هذه التنظيمات منفردة أو حتى مجتمعة مساومة السلطات السورية على قرارها بالبقاء في سوريا أو مغادرتها، وبالنتيجة فقد استند وجودها على الأرض السورية على أساس علاقات شخصية نفعية بين رؤوساء هذه التنظيمات وضباط المخابرات السورية.

لم تكن علاقات التنظيمات العراقية مع المخابرات السورية متكافأة، إذ من الواضح أن اليد العليا والطولى كانت للطرف السوري، الذي كان بإمكانه إنهاء العلاقة في أي وقت شاء وحرمان الطرف العراقي من بعض الامتيازات أو حتى مضايقة أعضاءه.

لم تخف التنظيمات العراقية علاقاتها بالمخابرات السورية، ولم تتستر على طبيعة هذه العلاقات، وما تنطوي عليه من سلوكيات، وكان قادة وأتباع هذه التنظيمات، أو بعضها على الأقل، يجاهرون بذلك، بل وحتى يتباهون بها، ويعدون ذلك دليلاً على مكانتهم ونفوذهم، وأثناء إقامتي في سوريا لثمان سنوات امتدت من أواخر الثمانينات حتى منتصف التسعينات كانت هذه العلاقات، وما انطوت عليه من سلوكيات مستهجنة، موضوعاً متكرراً للنقاش في لقاءات العراقيين.

لكي تكون رئيساً لجماعتك المعارضة في سوريا في ثمانينات وتسعينات القرن الماضي لا بد أن تكون لك علاقة خاصة مع ضابط مخابرات رفيع المستوى، واحد أو أكثر، للحصول على امتيازات، تتمتع بها شخصياً، أو تتفضل بها على أتباعك وطالبي شفاعتك، فالعراقي المقيم في سوريا، سواءً المعارض أو المُهجَر، بحاجة لهوية تعريف، يستعملها لإنجاز معاملاته الخاصة، بما في ذلك ابرام عقود الايجار وتسجيل الأبناء في المدارس وغيرها من المعاملات الرسمية والشخصية، وإن لم يستطع الحصول عليها بجهده فسيلجأ على الأغلب للمسؤول الأول في جماعة عراقية معارضة للتشفع له عند مكتب شؤون العراقيين أو غيره من الإدارات السورية المختصة.

استثنت الجهات الأمنية السورية هذه التنظيمات العراقية من الحظر التام الذي فرضته على الأنشطة السياسية، مما أتاح لها عقد الاجتماعات وحرية التنقل والسفر، كما اجازت لبعضها اصدار جرائد ونشرات وكتب سياسية في سوريا.

كانت دمشق محطة مؤقتة، للكثير من العراقيين في المنفى، عبروا من خلالها إلى بلدان أوروبية، طلباً لحياة أفضل، ونشطت بعض الحركات المعارضة والأفراد في تزويد هؤلاء العراقيين بجوازات السفر المزيفة أو المسروقة وأختام التأشيرات المزورة، وبأسعار باهظة بالنسبة لغالبية العراقيين، وهي انشطة لم تكن تخفى على بعض إدارات وضباط المخابرات، لكنهم غضوا الطرف عنها، نتيجة تفاهمات مع هذه الحركات والمعارضين، وبدون عون المخابرات السورية لم يكن بمقدور المعارضين الراغبين في اللجوء إلى دول أوروبية السفر بوثائق مزورة أو حتى بدون وثائق عبر مطار دمشق، وعلى سبيل المثال نجحت احدى التنظيمات الكردية في ترتيب سفر طائرة محملة بالعراقيين من دمشق إلى لندن حيث طلب ركابها اللجوء من السلطات البريطانية، الذين يقال أنها احتجت لدى السلطات السورية لتغاضيها عن ذلك.

استفاد قادة التنظيمات العراقية المعارضة شخصياً من علاقاتهم بالمخابرات السورية، التي منحت البعض منهم مساكن مجانية، وفي

مناطق سكنية راقية، في العاصمة السورية، مثل المالكي وأبو رمانة والمزة والبرامكة، فيما كان معظم العراقيين يسكنون في شقق أو غرف مستأجرة متواضعة في ضاحية السيدة زينب وحي الأمين وغيره من الأحياء المتواضعة، وقد عانيت مثلهم في الحصول على سكن مناسب، بسبب ارتفاع الأجارات وايضاً لأن السوريين يفترضون بأن كل العراقيين القاطنين في سوريا هم كما قادة التنظيمات المعارضة مرتبطون بالمخابرات، أو متنفذون لديها، مما قد يمكنهم من الاستيلاء على الشقق المستأجرة، وقد أسرني السوري – رحمه الله - الذي ارتضى تأجيري شقته في دمشق بأن اصدقاءه وصفوه بالحمق لأنه اجر شقته لعراقي، فقلت له بأني أفضل العيش في خيمة على أطراف دمشق من السكن في شقته عنوة ومن دون رضاه.

بعد السكن في الأهمية تأتي واسطة النقل، وهنا أيضاً حظي بعض قادة المعارضة باستثناءات من القيود الموضوعة على استيراد السيارات ودفع التعرفة الجمركية الباهظة، مما سهل اقتناءهم سيارات المرسيدس الفارهة، التي اشتروها بأسعار متهاودة، من معارض لبنانية، المشبوهة وقتها بتسويق سيارات مسروقة من دول أوروبية، وزودتهم السلطات السورية بلوحات أرقام سورية، معفاة من الرسوم الجمركية، كما حصل البعض منهم على قسائم بنزين أو مازوت مجانية.

كان من المحزن رؤية هؤلاء المعارضين يتجولون بسيارات المرسيدس الفارهة، ولا يلتزمون بإشارات المرور أحياناً، أسوة بكبار المسؤولين السوريين، والاكثر إيلاماً هو أولئك المعممون، الذين تراهم في شوارع السيدة زينب يتبخترون في سيارات المرسيدس الخاصة بهم، وفي مجالس العزاء ينصحون الناس بالزهد والتعفف.

بعد السيارة الخاصة طمح قادة وكبار المعارضين للحصول على ترخيص خاص باستعمال الخط العسكري المار عبر الحدود السورية اللبنانية، وهي ميزة أغدقها ضباط المخابرات السورية على أصدقائهم من العراقيين المعارضين، اتاحت لهم السفر إلى لبنان براً

من دون وثائق سفر أو تفتيش جمركي، وترددت روايات كثيرة عن استغلال بعض هؤلاء المعارضين هذا الترخيص في التهريب، وقد افتضح أمر أحد العراقيين المعممين عندما انقلبت سيارته على الخط العسكري ونجا بدنه من الإصابة لكن اسمه لاكته ألسن العراقيين بعد اكتشاف أعداد من الساعات المهربة في حطام سياراته. وبعد افتتاح متجر لهم في العاصمة السورية استعمل أبناء معارض بارز الخط العسكري في تهريب بضائع لبيعها في متجرهم.

عمل أحد المعارضين البارزين وسيطاً بين عائلة عراقية ثرية والسلطات السورية، وفي وقتها كان لهذه العائلة استثمارات في لبنان، تستدعي موافقة السوريين الذين كانوا يهيمنون على القرار اللبناني في وقتها، وكانت مساعدة هذا المعارض العراقي مهمة في تسهيل انسياب الأفراد والمنتجات الخاصة بهذه الاستثمارات عبر الحدود.

الأقبح في سلوك هؤلاء المعارضين هو استعمال نفوذهم لغرض الاستغلال الجنسي، ووفقاً لقريب لي قتله أحد المعممين في الغربة بسبب جرأته وصراحته توسلت سيدات وفتيات سوريات مساعدة أحد المعارضين البارزين لدى الجهات السورية، وكان يقايض ذلك بزواج متعة قصير معهن، ويشغل هذا المعارض اليوم منصباً رفيعاً ويتمتع بحظوة كبيرة لدى صناع القرار الذين عاصروه في سورية ويعرفون تفاصيل نشاطاته المشبوهة حينئذ، وسلوكه غير الأخلاقي لا يقل قبحاً عن معارض اخر انشق على نظام الطاغية صدام وروى لي نفس القريب المرحوم بأنه فوجئ يوماً بوقوف هذا المعارض عند باب شقة أبيه في مدينة دوما، وكانت بصحبته فتاة سورية، تبين بأنها صديقة لأحدى بناته، وكان قد حصل على مفتاح الشقة من والد الراوي، ولم يدري بوجود ابنه في الشقة حينها.

هذه بعض المنافع التي حصل عليها بعض قادة المعارضة من المخابرات السورية قبل عودتهم للعراق، فماذا قدموا للنظام والمخابرات السورية بالمقابل؟ غني عن القول بأنهم كانوا يناصرون النظام السوري ورئيسه الراحل حافظ الأسد، ويكيلون المديح له في

السر والعلن، وألف الموهوبون منهم القصائد مدحاً بالنظام ورموزه، ولم يشذ عن ذلك سوى رئيس تجمع قومي، تجرأ على انتقاد بعض انحرافات النظام، وقد اضطر لمغادرة سورية واللجوء لبريطانيا بعد أن تناهى لعلمه بأن نائبه نقل للسلطات السورية زوراً بأنه انتقد الرئيس السوري.

لا توجد أدلة على قيام بعض هؤلاء المعارضين بتزويد الجهات السورية بمعلومات مخابراتية، ولكن من المؤكد بأن بعض العراقيين عملوا مخبرين لدى السوريين، وقد اكتشفت تلك الحقيقة شخصياً أحد الأيام حيث كنت أقف بانتظار دوري لمتابعة معاملة لدى مكتب شؤون العراقيين وعندما طلب الحارس الأمني من العراقي الواقف أمامي هوية التعريف قدم له بطاقة انتساب للمخابرات السورية وقد عاتبه الحارس الأمني لأنه لم يبرزها من قبل ليدخل من دون انتظار.

دأب أحد المعارضين البارزين على مخاطبة ضابط المخابرات الذي يرتبط به بـ " يا معلمي" تذللاً واستعطافاً، إذ عادة ما ينادي العامل غير الماهر رئيسه في العمل بذلك، وكان هو وغيره من المعارضين المتنفذين يداومون على زيارة رعاتهم السوريين، ويتملقون لهم، ويقدمون لهم الهدايا الثمينة.

هذه بعض من سلوكيات قادة المعارضة العراقية في المنافي، وفيها أدلة كافية على انحرافهم وسطحية أو زيف التزامهم بمنظومة القيم والأخلاق الدينية والتقليدية، كما هي البرهان على استعدادهم التام لمقايضة السلطة والنفوذ بالمصالح، وبأنهم أنانيون يفكرون ويعملون من اجل مصالحهم وشهواتهم الدنيوية قبل كل شيء أخر، وكل ما يقدمونه لأتباعهم وأنصارهم من فتات موائدهم هو لغرض كسب ولائهم، وهم الآن يكررون نفس السلوكيات التي بدت منهم أثناء اقامتهم في المنفى، لذلك من حقنا الاستنتاج بأن سلوكياتهم أنماط ثابتة، ولا مجال لتغييرها إلا بصحوة ضمير وتوبة، وهو أمر مستبعد جداً.

الناس معادن في الخير والشر، وقد تأكد بأن الكثير من ساسة العراق شرار، مارسوا الإرهاب، وتستروا على الإرهابيين، واستغلوا السلطة والمنصب، وأهدروا الأموال العامة، وتبين أن البعض منهم كانوا شراراً قبل سقوط النظام البعثي الطاغوتي، وهم بالتالي غير جديرين بتولي المسؤوليات الكبرى في العراق، وتقع جريرة كل ما يقترفونه من شرور بحق العراق والعراقيين عليهم وعلى أنصارهم وأتباعهم وناخبيهم.

7 تموز 2012م

زرقاء اليمامة والأمريكان وعقدة "الخواجة "

كلنا سمعنا بعقدة الخواجة، وكم منا ردد وبمرارة الملدوغ من هذه العقدة بأن مغني الحي لا يطرب، وبأن العدسات الزرق أغوت كثيراً من الناس، على الرغم من تحذيرات الأغنية العراقية بأنها " ما بيها كل معنى وحسن من غير كحلة"، وحتى نعرف من كحل العيون الزرق في بغداد لا بد من حل العقد. ولا نحتاج إلى الخواجة نيوتن لنثبت بأن من الضروري أن تكون لكل عقدة رد فعل مضاد يساويها في القوة ويعاكسها في الاتجاه، ليس لأننا "نتلقفها وهي طائرة" كما يقول المثل العراقي، ولكن زرقاء اليمامة حذرتنا مرة بعد أخرى وآن الأوان لأن نسمع ونتعلم، ولكن قبل البحث عن رد الفعل المناسب ينبغي أن ندرس الفعل ونفهم دوافعه.

يقول الأمريكيون بأنهم أتوا للعراق لإنقاذه من دكتاتورية غاشمة تتهدد جيرانه والعالم بأسلحة الدمار الشامل، ولإعادة بناءه وتعميره بعد دمار وويلات ثلاث حروب وحصار، وكذلك ارساء نظام ديمقراطي مستقل، وبالفعل فقد أقصوا النظام البعثي عن السلطة الا إنهم لم يقضوا عليه تماماً، وسواء وجدوا أسلحة الدمار الشامل أم كان الأمر برمته أحبولة سياسية سيان لدى معظم العراقيين الذين تنفسوا الصعداء بعد كبت طويل، ولكن حذار فالأنفاس العميقة التي تملأ صدور العراقيين هذه الأيام فاتحة الشهية، ولكم أن تتصوروا مدى انفتاح هذه الشهية على كل شيء حرمه النظام المتواري بدءً بالأخبار الطازجة والتظاهر السلمي دون قمع حتى التنعم بخيرات البلاد ومعطيات التقدم، وقد سبق لهم أن اسقطوا نظاماً ملكياً لأنه تلكأ في الخمسينات في اشراكهم في منافع التنمية الممولة بعوائد النفط المتصاعدة آنذاك.

والحديث عن الإعمار والتنمية يقود الى فحص صدق النوايا الأمريكية، ومعظم الأموال المخصصة لذلك هي أما أموال عراقية

مجمدة أو قروض، فبأي سلطة يقرر الأمريكيون صرفها سوى سلطة المحتل القوي؟ واذا كان هدفهم التنمية الخالصة من أي مطمع فلماذا يرفضون اشراك أطراف دولية في ادارة اعادة الإعمار أو على الأقل الرقابة على الصرف، ولماذا يشكك الاستعماريون القدامى أمثال فرنسا وروسيا بالنوايا الأمريكية، أو ليس شبيه الشيء بالشيء أعرف. ولنسأل مفترضي حسن النوايا الأمريكية أي نظام اقتصادي يريد الأمريكيون بناءه في العراق وهل سينجحون؟ حتى المدافعون عن حسن النوايا الأمريكية لابد أن يقروا بأن النماذج وأساليب العمل الناجحة في أمريكا ودول غربية أخرى قد تكون غير متوافقة مع النظام القيمي للعراقيين، وبالتالي غير صالحة للزرع في بيئة الرافدين.

وهذا يعيدنا إلى التساؤل حول الجدارة الإدارية والاقتصادية للخواجات أصحاب العيون الزرق، هنالك من يؤيد بحماسة التفويض المطلق للأمريكيين، كما عبر عنه وكيل وزارة في دولة عربية مجاورة حينما قال لي: الأفضل أن تدعوهم يصلحون البلد لسنتين أو أكثر ثم يعيدونه لكم، وهذا الفكر يعبر عن عقدة الخواجة بأقبح صورها، و يكشف عن حقيقة كونها عقدة دونية، إذ يفترض العجز التام للعراقيين، وبأنهم غير قادرين على اتخاذ قرارات إستراتيجية وإدارية صائبة، وبأن الخواجات وحدهم سينجحون في هذه المهمة، وهذا المسؤول العربي ومئات مثله لديهم الكثير من القصص الدالة على رداءة أو عدم صلاحية الاستشارات باهظة الثمن التي حصلوا عليها من خبراء غربيين، والأمريكيون أنفسهم يعترفون بأن مخططاتهم لإدارة الوضع في العراق بعد انتهاء العمليات العسكرية كانت غير فعالة أو ناقصة، وبأنهم أساؤوا التقدير في أمور عديدة، ناهيك عن الاتهامات التي يوجهها خصومهم الديمقراطيون بإساءة استعمال الأموال والمحاباة في توزيع العقود.

وتتقاطع عقدة الخواجة أو الشعور بالدونية أمام الغرب مع عقدة الاستهانة بالريفي-العربي والكردي- التي يعاني منها الكثير من عرب الحضر العراقيين، والذين يرددون مع أجدادهم" تسمع

بالمعيدي خير من أن تراه"، وتطلق تسمية المعيدي استعلاءً وتحقيراً على سكان الأهوار خاصة والجنوبيين عموماً، مثل تسمية الشرقاوي في الجزيرة العربية والصعيدي في مصر، ويبدوا أن قلة من هؤلاء الحضر المتحمسين للنموذج الغربي أقنعوا الأمريكيين بأن المستطيل المعيدي لا يشبه المثلث، وأن المعيدي سيرضى من غنائم ما بعد صدام باليسير من الحرية في ممارسة شعائره المذهبية وحفنة من الدولارات، أما رأي المعيدي الحكيم بهم فنجده في جوابه على سؤال عما رآه في المدينة:" زرق ورق وبيض لقلق" والزرق ورق هي القصاصات الملونة التي تعلق في الشوارع، وبيض اللقلق حلوى شبيهة بشوكولاتة عيد الفصح، وبهذا الجواب عبر عن استهجانه بزخرف المدينة وحلاوتها المصطنعة.

وما أشبه اليوم بالبارحة حينما ذهب الأمريكان إلى إيران الإسلامية حاملين قرباناً من الحلويات -ولعل حضرياً قال لهم بأن المؤمنين مثل المعيديين حلويون-ولأنهم استعلائيون، وكما عبر عن ذلك الرئيس الأمريكي مؤخراً بأن العالم "تحت قيادتي آمن"، ومثل قارون في تبجحهم بأنهم أوتوا كل شيء على علم من عندهم دخل الأمريكيون العراق مدججين بأسلحة الدمار الذاتي، أي بعقد الخواجة والمعيدي وغيرها من عقد الاستعلاء، فهمشوا الدور العراقي، حتى ضج حلفاؤهم بالشكوى، وأصبح الحضري قبل المعيدي يخشى الخروج من بيته لئلا يصرعه رصاص فلول أزلام النظام المتخفي أو الجنود الأمريكان المتشنجين حذراً وخوفاً، أو يسلبه المجرمون ماله أو يعتدون على عرضه أو يخطفون أحباءه.

أما ادعاء الأمريكان بأنهم جاؤوا لإنشاء نظام ديمقراطي حر يكون قدوة للعرب والمسلمين فهو أشبه بالرسالات الآلهية المنزلة، لذا يتطلب التصديق به معجزة، كإحياء الموتى مثلاً، فمن ثوابت السياسة الخارجية كما ينظرها ويطبقها الغربيون وغيرهم أولوية المصالح الوطنية الذاتية على كل الاعتبارات الأخرى، وحتى يكون النظام العراقي الديمقراطي المنتظر قدوة مقبولة لدى الأمريكان لابد أن يكون نسخة طبق الأصل الغربي، ومشاركاً نشطاً في تنفيذ

مخططاتهم في المنطقة، أي عودة الى ما يشبه العهد الملكي في احلاف قادته الحضر وسياساتهم الفاشلة التي فرخت سلسة الحكومات العسكرية أو الشمولية المدمرة، أضف إلى ذلك الاعتراف بالكيان الصهيوني والانضواء في الحملات الأمريكية ضد" محور الشر" و"الإسلام المتطرف" وغيرهم.

سابقاً رفع رئيس النظام البعثي شعار إعادة بناء الإنسان العراقي، ويكرر الرئيس الأمريكي هذه الأيام نغمة مماثلة حول بناء الدولة nation building في العراق، وقد سقط الشعار، كما ستتحول النغمة إلى نشاز قبل أن تخبوا، فلا البشر صلصال نحات، يشكله كما يشاء، ولا الأمم مباني قابلة لإعادة الهندسة.

والعقد الاستعلائية وكذا الدونية انعكاسات لمشاعر الخوف والقلق وضعف الثقة بالذات، والتي تولد الشكوك والأحقاد والعدائية المتبادلة، وتنتج عنها الإثنية الضيقة والطائفية والمذهبية، والعلاج لهذه العقد وغيرها من المشكلات التي يعاني منها عراقنا ليس مستعصيا، ولكنه لا يكمن بالضرورة في استنساخ النموذج الغربي الأمريكي، فلا اليابان أو كوريا الجنوبية أو الصين أو الهند أو النمور الاقتصادية الأسيوية اتبعت طريقة الاستنساخ في تطوير مجتمعاتها اقتصادياتها، بل الجميع كانوا حريصين على المحافظة على خصائصهم الثقافية الموروثة ، وأمثل وأمتن أساس لبناء مستقبل زاهر هي القيم والمبادئ الإسلامية-العربية الأصيلة، التي تدعوا إلى الاستقلال واحترام الحقوق وسيادة القانون والحرية والمساواة والتآخي والتعاون.

حوار مع عراقيين مسبّحين بحمد أمريكا

سخرت من قول للرئيس الأمريكي بأن أمريكا دولة لا غنى للناس عنها فرد علي عراقيون تضامناً مع أمريكا واحتلالها للعراق مما يدل على أن ليس ساسة النظام العراقي الفاسد مناصرون لأمريكا واحتلالها لبلدهم فقط بل شريحة واسعة من العراقيين مستعدون للمجاهرة بموقفهم المخزي.

كتب المدعو الخزاعي بأن كلام أوباما "له وجه من الصحة فعلاً فأمريكا دولة لا غنى للناس عنها...فنحن العرب والمسلمون محتاجون لها في استخراج نفطنا وبيعه... أمريكا دولة عظمى محطة لتجمع البشرية من كل الدول والديانات بينما عجزنا نحن أن نجتمع في بلد واحد ونعيش عيشة آدمية"..واتمنى ان اعيش في بلد اصعد مع سائق التكسي فيه وما يسالني من يا عمام [قبيلة؟"

جاء ردي عليه كالآتي:

إن القول بأن لا غنى للناس عن أمريكا مناقض لأبسط الحقائق العلمية، فالبشر كلهم وفقاً للنظريات التربوية والاجتماعية الحديثة يتوزعون من حيث الذكاء والقدرات توزيعاً طبيعياً (بشكل ناقوس)، اي أن غالبيتهم العظمى عند المعدل أو الوسط وقلة منهم ذو ذكاء مرتفع، وثلة منهم يتدنى مستوى ذكائهم دون الوسط، وحتى نتفق مع أوباما ومعك حول التفوق الأمريكي على كل البشر لا بد من رفض هذه الحقيقة العلمية المقبولة لدى المختصين في أمريكا وغيرها، ونعترف بأن أمريكا أمة استثنائية أو خارجة على التوزيع الطبيعي، لأنهم أمة خارقة، أو سوبر أمة، وبالتالي فإن افرادها من نوع راق فوق البشر العاديين، هل عرفت الآن إلى أين يقودنا هذا النوع من التفكير؟ إلى النازية وهتلر الذي كان يردد بأن الجنس الأري ومنهم الشعب الالماني هم أرقى البشر وان الأمة الألمانية فوق

الجميع Deutschland über Alles وهذه عقيدة عنصرية لا إنسانية مقيتة، تسببت في هلاك عشرات الملايين من البشر خلال القرن الماضي، وحتى السبعينات من القرن الماضي كان الأمريكيون البيض يتعاملون مع السود بنفس النزعة العنصرية المتعالية.

كلنا نعرف الانجازات العلمية والتقنية للأمريكيين، والتي ساهم الأوروبيون وغيرهم من المهاجرين في تحقيقها، وفي نفس الوقت يجب عدم انكار الانجازات الباهرة التي حققتها دول أوروبية بما فيها روسيا، ميزة أمريكا هي انها توفر تسهيلات جمة للباحثين وتسوق أفكارهم وتجني لهم العوائد والأرباح الكبيرة، والعامل التجاري والربحي المادي مؤثر رئيسي في تمويل البحوث، وأهم مصادره المؤسسة العسكرية الصناعية والشركات الكبرى الخاصة، ومقابل هذه الانجازات فقد تسببت الصناعة الأمريكية والتقنيات المستعملة فيها وكذلك التهافت الاستهلاكي للأمريكيين في تسارع استهلاك الموارد الطبيعية في العالم ومنها النفط وغيره من مصادر الطاقة، كما أدت إلى تلوث واسع وخطير للبيئة، مما يهدد مستقبل البشرية كلها، وهي أمور غير خافية على الجميع.

أما شرور أمريكا في حق البشرية فإحصاؤها يحتاج إلى مجلدات، ويكفيك أن أمريكا الأمة الوحيدة التي استخدمت قنابل ذرية لقتل مئات الالاف من المدنيين اليابانيين في الوقت الذي كان الجيش الياباني منهكاً وعلى وشك الاستسلام، وهي التي اسقطت طائرة الركاب المدنية الإيرانية ولم تعتذر.. لذلك ليس مقبولاً منك تذكيري بآيات القرآن الكريمة الداعية إلى الشهادة بالقسط، وفي ميزان العدل شرور أمريكا أكثر بكثير من محاسنها، فهي والخمر سواء، أو هي الشيطان الأكبر بالفعل، وأعود فاذكر بأن الله وحده لا غنى للخلق عنه، ووضع أمريكا في نفس الموضع شرك أو كفر بالله.

موضوعي هو الرد على تعالي واستكبار أوباما أما الوضع في العراق وبالذات قبلية العراقيين المتخلفة فقد نشرت في تحليلها وانتقادها كتباً ومقالات، ويتحمل الأمريكيون المحتلون جانباً من المسؤولية المباشرة وغير المباشرة عن عودة القبلية نتيجة

اضعافهم الوحدة الوطنية بالطائفية والفدرالية وبالتالي الولاء للوطن. ولو ركبت سيارة أجرة في أمريكا أو كندا اليوم فلربما وجدت سائقها من أصل عربي أو حتى عراقي وقد يسألك هو ايضاً : من اي منطقة في العراق أنت أو حتى من أي قبيلة، وإذا أردنا أن نتخلص من القبلية فعلينا أن نبدأ بأنفسنا ايها العزيز الخزاعي، وأول المطلوب محو ألقابنا القبلية.

ذكرت القراء والمحاورين بأن في كل عام يتخرج عشرات الألاف من مواطني دول العالم من جامعات أمريكية، ويستجيب كثير من هؤلاء الخريجين لإغراءات قوية للإقامة والعمل في أمريكا، ويساهمون في رفد المؤسسات التعليمية والانتاجية الأمريكية بمعارف ومهارات عالية في الوقت الذي تحرم أوطانهم الأصلية من خدماتهم، ويتضح من هذه الحقيقة أن أمريكا ليست في غنى تماماً عن غيرها من الأمم، فرد علي أحدهم بأن " لو هؤلاء الخريجين [الصحيح الخريجيون] حصلوا على وظائف وعيشة كريمة لرجعوا الى بلدانهم ، وهل توجد مصانع او وظائف تستوعبهم وحسب تخصصاتهم ؟ " فأجبته بما يلي:

ذكرت هذه الحقيقة للاستدلال على أن أمريكا ليست غنية عن الخلق لذلك هي تغري هؤلاء الخريجيين بالبقاء فيها والعمل في مؤسساتها، وبالتأكيد فإن معظم الأوطان الأصلية لهؤلاء الخريجيين قادرة على استيعابهم والاستفادة من معارفهم ومهاراتهم، وهي اساساً ابتعثتهم لسد احتياجات معينة، ولنتذكر هنا دور الخريجيين اليابانيين الأوائل من الجامعات الأوروبية الذين عادوا إلى أوطانهم وساهموا في نهضة بلادهم بداية القرن الماضي، كما أن خريجي هذه الجامعات من الصينيين لعبوا دوراً مشابهاً في الاربعينيات والخمسينيات، وما بعض الدول العربية ومنها العراق منذ الثمانينات وحتى اليوم إلا حالات استثنائية، ففي الأربعينات والخمسينات من القرن الماضي كان العراقيون يعظمون خريجي معاهد المعلمين فما بالك بخريجي الجامعات المحلية أو الجامعات الأجنبية، ثم حكم الفاشلون دراسياً من العسكر ومن ثم الحزبيين ومن بعدهم مزوري

الشهادات وعديمي الكفاءات كما تصفهم والذين ساعدهم الاحتلال الأمريكي على الوصول إلى الحكم نتيجة المحاصصة الطائفية والفدرالية والتوافق.

استفز استنكاري لكلام أوباما وتناقضه مع المصير المفجع لسكان أمريكا الأصليين إذ كتبت: يتناقض حال سكان امريكا الأصليين مع وصف أوباما، فقد كان نشوء دولة أمريكا السبب في ابادة الملايين منهم ونهب أراضيهم ومحو تراثهم واندثار لغتهم وقسرهم على تغيير ديانتهم، وهم يتمنون لو لم توجد دولة أمريكا أساساً، فرد علي ع. ع.: " نعم كان الهنود الحمر هم مواطني امريكا الاصليين ، ولكن لو بقى هؤلاء هم من يتواجد على هذه الارض ، لما وصل العلم لما وصلنا اليه بعد ما استقبلت المهاجرين الاكفاء لبناء دولة تعتبر اليوم دولة كبرى ، والاهم ان هذه الدولة التي تأسست قبل مئتين سنة هي ملاذ آمن لكل مضطهد سواء من دولة ذات حضارة يوما أو لكل انسان كفوء وذي علم عالي"[أضفت على كلامه بعض التصحيحات الاملائية والنحوية]، فعدت للكتابة لبيان موقفي: اختلف معك تماماً وجذرياً فالطريقة التي تعاملت بها أمريكا حكومة وجماعات وأفراداً مع سكان أمريكا الأصليين هي بمثابة جرائم إبادة جماعية لا يمكن ولا يجوز تبريرها، وبالطبع عندما قتل المستوطنون البيض سكان أمريكا لم يكن يحلمون حتى بأن بلدهم سيكون دولة كبرى ترعى العلوم بل كانت دوافعهم الجشع والانانية والرغبة في نهب أراضي وثروات السكان الأصليين واجتثاثهم، وبرروا سلوكهم الوحشي بدعوى أن السكان الأصليين أدنى من العنصر الأوروبي وكل الأدلة التاريخية وشهادات المنصفين تدل على أن السكان الأصليين كانوا أكثر تحضراً وسمواً وصدقاً وإنسانية في تعاملهم من المستوطنين الأوروبيين. وكتب الفيلسوف الفرنسي ميشيليه Michelet في القرن التاسع عشر معلقاً على المصير المفجع للسكان الأصليين لأمريكا الشمالية بأن "الأنجلو أمريكيين الجهلة من التجار وأتباع المذهب التطهري انتهوا من تجويع وإبادة أولئك الأقوام الأبطال الذين تركوا فراغاً على الكرة الأرضية وشعوراً بالأسى في البشرية جمعاء." وهل كانت أمريكا ملاذاً آمناً للملايين من المسترقين ذوي البشرة السوداء الذين

ما يزالون يشتكون من التفرقة العنصرية؟ وإذا كانت أمريكا ملاذاً آمنا كما تذكر فلم يقتني الأمريكيون أسلحة شخصية أكثر من أي شعب في العالم وبمعدل 90 سلاحاً لكل 100 فرد في 2007 حسب تقرير لوكالة رويترز (العراق 39 سلاح لكل 100 فرد)؟ ولو كانوا يشعرون بالأمن والاطمئنان لما احتفظوا بأكبر ترسانة للأسلحة الفردية في العالم، كما أن اكثر من عشرة بالمائة من المدارس الإعدادية والثانوية في أمريكا تفرض على طلابها المرور عبر أجهزة كاشفة للمعادن للتأكد من عدم حملهم أسلحة نارية أو جارحة، وهي مستعملة في 4.4 % من المدارس الابتدائية.

كان لزاماً علي التوقف عند الدور الأمريكي الإجرامي والمنافي لقيم العدالة والحقوق والمساواة من القضية الفلسطينية فكتبت: لا غنى للكيان الصهيوني عن أمريكا، التي تقدم له كل أنواع الإسناد والدعم، لكن الفلسطينيين الذين يحتل الصهاينة أرضهم ويسومونهم الخسف يودون لو لم يكن هنالك كيان صهيوني ولا أمريكا، وأمريكا في الحقيقة وبال على كل الشعوب المستضعفة في اسيا وأفريقيا وامريكا الوسطى والجنوبية، ومن ضمنهم الشعوب العربية والإسلامية، وإن كانت بعض حكوماتهم تحت النفوذ الأمريكي، مما أثار استياء قارئ عراقي استحوذ حب أمريكا على قلبه فلم يبق فيه ذرة من تعاطف إنساني وقومي وديني مع الفلسطينيين المظلومين وقضيتهم، إذ حاجج بأن المشكلة في الفلسطينيين لا في أمريكا فكتب: اذا كان الفلسطينيين [الصحيح الفلسطينيون] هم انفسهم متفرقين بين أحزاب وحركات وايضا تابعين لدول ، فمنهم كان جناحا تابع للعراق والاخر لسوريا ولليبيا ، واليوم فمنهم من هو اسلامي او ديمقراطي او علماني ، ولا ننسى التصفيات التي تمت بين قادتهم او بين حركاتهم المتعددة ، فهل نطالب من امريكا ان تكون حريصة على القضية الفلسطينية [الفلسطينية] أكثر من الفلسطينيين انفسهم ؟

فلم أتركه يمر من دون رد مفحم: لا أحد ينكر وجود الاختلاف بين الفصائل الفلسطينية حول كيفية التعامل مع القضية وحتى في أيام

المفتي أمين الحسيني عارضه البعض وخاصة في الارياف لأن أتباعه من "الأفندية"، ولكن اختلافهم لا يقلل بمقدار ذرة من أحقية قضيتهم ، ولا أحد يريد من أمريكا أن تكون حريصة على القضية الفلسطينية، لكنها منحازة بالكامل للصهاينة مع أنها تدرك جيداً بأن النظام الصهيوني غاصب ومعتدي وتوسعي وعنصري، وموقفها من هذه القضية أكبر دليل على أن امريكا دولة متجردة من القيم الإنسانية والعدالة.

استهجن أحد القراء العراقيين جحودي أفضال أمريكا على العراق وشعبه إذ أبديت رأي في احتلالها: وحتى بعض العراقيين الذين يشعرون بعرفان الجميل تجاه أمريكا لأنها حسب ظنهم الخاطئ حررت بلادهم لتنتشر فيه مبادئ الديمقراطية وتعيد اعماره لا يمكن أن يتفقوا مع تبجح أوباما بأن امريكا الأمة التي لا غنى للبشر عنها، فكتب موبخاً: ولماذا لا نشعر بعرفان الجميل لأمريكا، ولولا امريكا لكان صدام حسين وحزبه ما زالوا جاثمين على صدورنا، واسمحوا لي ان اقول ايضا ما يجول بخاطري، فعندما جاء (جوني وجورج وجونسون) الامريكان وهم يقطعون الاف الاميال ليحرروا العراقيين من صدام تفاجئوا بأن(علي ومحمد وحسن وبكر وعمر وعثمان وكاكا رسول ونيجرفان ومنصور) العراقيين ينهبون الوزارات والبنوك والدوائر وحتى المستشفيات ومن ثم التهجير والقتل على الهوية فيما بينهم، الان انسحبوا الامريكان من العراق، فما الذي تحسن، كهربائهم، خدماتهم، امانهم، مواطنتهم، اعمارهم، وزاراتهم، مدارسهم، او حتى نظافة شوارعهم.

والتسبيح بحمد أمريكا كلام أشبه بالكفر في نظري لم أسكت عنه: أمريكا احتلت العراق خدمة لمصالحها بالدرجة الاولى، وبتقديري فقد اطاحت بنظام صدام وحزبه لأنها خشيت من ان يتولى العراقيون بأنفسهم تغيير النظام واقامة نظام بديل لا يرضي مصالح أمريكا خاصة بعد ان عملت على اضعافه بالحصار الشامل، وتتحمل أمريكا مسؤولية كبيرة عن ارساء نظام المحاصصة الطائفية والفدرالية المصطنعة الفاشل واتاحة الفرصة لطبقة من أنصاف المتعلمين

والفاسدين أخلاقياً لتولي مقاليد السلطة في العراق وقد ظلت أمريكا الامرة والناهية في العراق لثمان سنين بعد الاحتلال تدهورت خلالها الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ومازالت الطبقة الحاكمة التي جاء بها الأمريكيون تسير على نفس النهج. لقد اقتبس الأمريكيون النظام اللبناني الرديء وطبقوه في العراق وهم يدركون جيداً مساوئ هذا النظام الذي أدى إلى حرب أهلية مدمرة وما زال الوضع في لبنان على شفا حرب أهلية أخرى واقتصاده متعثر. على الرغم من ارتفاع مستوى التعليم والثقافة في لبنان ينتخب اللبنانيون وفقاً لانتماءاتهم الطائفية والمناطقية لأنهم محكومون ومقيدون بنظام طائفي متعفن، وعندما تكون للطائفية الكلمة العليا تضمحل أهمية الوطن ويصبح الحديث عن الوطنية مجرد مزايدة في السياسة، لهذا اتفق معك تماماً بان العراقيين اليوم يحرصون اليوم كل الحرص على عوائلهم وطوائفهم وقبائلهم بحيث لا يبقى في نفوسهم من الحرص على الوطن إلا القليل، ولا خلاص للعراقيين إلا بتغيير النظام السياسي ونبذ الطائفية وايقاف المد القبلي وغيرها من مخلفات النظام البعثي والاحتلال الأمريكي وحكم الزمر العابثة حالياً.

قول أوباما نابع من تفكير استعلائي فلو وافقناه على أن أمريكا هي الأمة الوحيدة التي لا غنى للخلق عنها نكون قد أقرينا بأننا جميعاً أي المسلمين والعرب وبقية الأقوام زائدون أو فائضون عن الحاجة أي أن البشرية في غنى عنا وقد يسوغ هذا الفكر للدولة التي لا غنى عنها الاستغناء عنا تماماً أي ابادتنا.

لأمريكا وجه في غاية القباحة ولأسباب عدة منها ما يلي:

أولاً: أمريكا طرف في الغالبية العظمى للحروب التي حدثت منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية فقد بادرت إلى شن الحرب في كوريا وفيتنام ولاوس والفلبين وحرب تحرير الكويت واحتلال أفغانستان والعراق كما ساهمت بصورة مباشرة وغير مباشرة في الحرب العراقية على إيران وفي حروب الكيان الصهيوني على الدول العربية واحتلال لبنان وتقسيم السودان.

ثانياً: استعمال الأسلحة النووية ضد المدنيين في حربها مع اليابان وبدأ السباق النووي بين الدول الكبرى والتغطية على امتلاك الكيان الصهيوني لمئات القنابل النووية.

ثالثاً: دعم واسناد الحكومات الدكتاتورية في أمريكا الوسطى والجنوبية وأسيا وأفريقيا وتدبير الانقلابات ضد الحكومات الوطنية مثل حكومة مصدق في إيران خدمة لمصالحها وشركاتها العابرة للقارات، وفي موضوع الانتفاضة البحرينية الراهنة أقرت أمريكا بأن الأولوية المطلقة هي لمصالحها مما يفضح كذب ونفاق ادعائها بنصرة الديمقراطية والليبرالية وحقوق الإنسان.

رابعاً: تسببت الصناعة الأمريكية والتقنيات المستعملة فيها وكذلك التهافت الاستهلاكي للأمريكيين في تسارع استهلاك الموارد الطبيعية في العالم ومنها النفط وغيره من مصادر الطاقة، وعلى سبيل المثال تستهلك أمريكا من النفط في العام الواحد ما يعادل مجموع استهلاك الصين وروسيا واليابان وألمانيا وفرنسا، وتبين مؤخراً بأن الأمريكيين يرمون 40 بالمائة من الأطعمة بقيمة 165 مليار دولار في القمامة كل عام.

خامساً: تلوث البيئة على نطاق واسع وحتى 2007م كانت أمريكا على رأس قائمة الدول الأكثر تلويثاً للبيئة من حيث اطلاقها لغاز ثاني أوكسيد الكاربون في الهواء ثم تقدمت عليها الصين، ولكن من دون الأخذ في الاعتبار لحقيقة أن سكان الصين أربعة أضعاف تعداد الأمريكيين (18 طناً من غاز ثاني أوكسيد الكاربون لكل فرد).

سادساً: ادخال العامل التجاري كعامل أساسي في تمويل البحوث العلمية والإنسانية مما اثر سلباً على البحوث وتطور المعرفة في كافة الحقول.

سابعاً: نتيجة غلبة العامل التجاري ازدهرت الكتابات والفنون المبتذلة في أمريكا ومن يقلدها في الوقت الذي اضمحلت الأعمال الفنية والأدبية الجادة والهادفة.

خلال القرنين الماضيين عانت البشرية من قوى متوحشة تسببت بهلاك ومئات الملايين وتهجير ملايين أخرى وتدمير المدن والبنى الاقتصادية، ومنشأ كل هذه القوى الوحشية هو أوروبا وأمريكا وهي كما يلي: الحروب الصليبية، الحروب بين أوروبا الكاثوليكية والبروتستانتية، حروب نابوليون، الاستعمار وبالأخص الاستعمار الأوروبي الاستيطاني، استعباد الأفارقة السود، الإمبريالية، النازية والفاشية، الستالينية والرأسمالية الاستغلالية، ولا يجوز تقييم "الحضارة" الأوروبية وامتداداتها في أمريكا وغيرها من دون الأخذ بالاعتبار هذه القوى المتوحشة وأثارها الكارثية على البشرية.

.

لو قاوم كافة العراقيين الاحتلال الأمريكي

لو كان نيل المطالب بالتمني لكانت تلك أولى أمنياتي، ومن المؤكد بأن ليس كل ما في الدنيا يؤخذ غلاباً، ولكن في هذه الحالة ليس هنالك من بديل سوى الغلبة، فأما أن تكون للشعب العراقي وقواه المؤمنة بدينه ووطنه وأما أن تكون للمحتلين الأمريكان، وكل ماعدا ذلك من ادعاءات لأعوان المحتلين والمستقوين بهم على جماهير الشعب الرافض للاحتلال محض كذب وافتراء، فالأمريكان لم يأتوا لتحرير العراق بل لاحتلاله، وهم وحلفاؤهم الصهاينة وغلمانهم من حكام العرب يريدون عراقاً ضعيفاً مقسماً، والأمريكان لم يمنعوا قيام حرب أهلية بل هم اشعلوا شرارتها عندما تحدوا الإرهابيين لمنازلتهم على أرض العراق، وتركوا الحدود مفتوحة ليدخلها إرهابيو القاعدة حلفاؤهم بالأمس وخريجو كتاتيب الوهابية السعودية، وحرموا على العراقيين العزل الدفاع عن أنفسهم، وإذا كان الأمريكان أنفسهم يعلنون جهاراً بأنهم احتلوا العراق خدمة لمصالحهم الاستراتيجية والاقتصادية فكيف يجرؤ عراقي على تنزيه مقاصد المحتلين الأمريكان؟

العراقيون على اختلاف أديانهم وطوائفهم وأعراقهم، وعلى الرغم من الخلافات السياسية العميقة بين فئاتهم، مجمعون على معارضة الاحتلال، مهما كان نوعه، وحتى لو كان له منافع عرضية أو غير مقصودة، وهم بذلك لا يختلفون عن الهنود الحمر والماوماو والفيتناميين والهنود، وحتى الأمريكان وجلهم مستوطنون نازحون من بريطانيا عندما حاربوا القوات البريطانية المحتلة لنيل الاستقلال، ولا يشذ عن قاعدة معارضة الاحتلال سوى ثلة قليلة من العراقيين، الذين وجدوا في الاحتلال جسراً للعبور عليه نحو الاستئثار بالسلطة والتسلط على العراقيين وتحقيق مآربهم الشخصية الأخرى، ولو على حساب دماء ودموع أبناء شعبهم، وقد استثمر هؤلاء الهجمات الإرهابية ليضعوا الناس بين اختيارين لا ثالث لهما: أما

الرضوخ للاحتلال ومخططاته أو المخاطرة باكتساح الإرهابيين لكافة مناطق العراق، وما يجره ذلك من مجازر جماعية وتهجير لغالبية العراقيين، وعندما حاول البعض التصدي بما لديهم من أسلحة بسيطة للإرهابيين الطائفيين صنفهم أعوان المحتلين ضمن الخارجين على القانون، وحاربتهم قوات الحكومة والاحتلال بضراوة لم تشهدها عملياتهم ضد الإرهابيين.

من المفجع أن معظم العراقيين ساهموا، ولربما بعضهم من دون قصد، في إضعاف أنفسهم تجاه المحتلين واسدوا خدمات كبيرة لهم، فعندما يقتل الإرهابيون السلفيون وأعوان النظام السابق المندثر المدنيين العزل يثيرون الفتنة الطائفية ويصرفون الاهتمام عن مقاومة المحتلين، والرابح الوحيد من ذلك هو المحتل، ووفر المتهافتون على المشاركة في العملية السياسية تحت الحراب الأمريكية وما فرضته من محاصصة إثنية وطائفية خبيثة، نوعاً من الغطاء الشرعي للاحتلال، وأضفوا مصداقية على وعوده الجوفاء حول بناء نظام ديمقراطي تعددي في العراق، وقد كان لادعاءات بقايا النظام الطاغوتي السابق والإرهابيين حول مشاركتهم في مقاومة المحتلين، وهي في معظمها مختلقة، تأثيرات سلبية على المقاومة، إذ دفعت بالكثير من العراقيين إلى اتخاذ موقف المتفرج وعدم المشاركة في المقاومة تجنباً للقتال في خندق واحد مع الإرهابيين والبعثيين وبانتظار نشوء جبهة مقاومة واسعة، تستثني من صفوفها جلادي البعث والطائفيين السلفيين وأشباههم، وهنالك من العراقيين من سكت على الاحتلال لأنهم صدقوا كلام بعض المتعاونين مع المحتلين بأن أمد الاحتلال قصير، وبأنهم سيكونون أول المقاومين للمحتلين لو رفضوا الانسحاب سلمياً، وها نحن نشهد اليوم تسويقهم لإبرام معاهدة شاملة مع المحتلين، هي أسوء في تبعاتها على سيادة واستقلال العراق من معاهدات وأحلاف العهد الملكي البائد.

قياساً على ثورة العشرين فإن مقاومة الاحتلال الأمريكي، حتى الآن على الأقل، محدودة وضعيفة، ناهيك عن تشوه صورتها نتيجة

تزامنها مع العمليات المسلحة لبقايا البعثيين بأمل استعادة سيطرتهم وكذلك الحرب الطائفية التي تشنها الجماعات السلفية الإرهابية، والتي تكمن الأيادي الأمريكية والسعودية من خلفهما، وفي الوقت ذاته يلوذ غالبية العراقيين بالصمت والسكون منتظرين انجلاء الموقف وقد فاقت ضحاياهم مئات المرات قتلى وجرحى المحتلين، وعلى هذه الخلفية يقفز إلى الذهن السؤال، ليس من باب الفضول العقلي فقط وإنما للاتعاظ واستدرار الفائدة: ماذا لو قاوم معظم العراقيين الاحتلال؟

أقول وكلي ثقة بأن اتفاق العراقيين- باستثناء البعثيين والإرهابيين- على مقاومة المحتلين هو الجسر الوحيد للعبور نحو الاستقلال الكامل والحرية والديمقراطية والتنمية للجميع، ولو بادر جميع العراقيين، بقيادة مراجعهم الدينية وحركاتهم السياسية، لمقاومة الأمريكان منذ الشهور الأولى بعد الاحتلال، حتى بالوسائل السلمية، مثل الإضرابات والاحتجاجات والمظاهرات والعرائض وكسب التأييد العالمي الرسمي والشعبي، لكان ذلك كافياً في تقديري لإجبار المحتلين على المغادرة في ظرف ستة أشهر، ولتحققت فوائد عظيمة للعراقيين وأمكن تجنب الكثير من الويلات التي وقعت عليهم بسبب الاحتلال، ومن أهم هذه الفوائد والإيجابيات ما يلي:

- تركيز اهتمام وجهود وموارد العراقيين حول هدف مركزي، يحظى بأهمية قصوى دينياً ووطنياً مما سيوحد صفوفهم، ويقلل من احتمال اختلافهم وتفرقهم، ويرفع من روحهم المعنوية، ويعزز ثقتهم بأنفسهم، ويفجر طاقاتهم الكامنة، ويهيئهم لانطلاقة موفقة بعد التحرير.
- قطع الطريق على دخول الإرهابيين إلى العراق، لأن المحتلين سينشغلون بالتعامل مع مقاومة العراقيين لهم، ولن يكون بمقدورهم تحويل العراق إلى ساحة صراع مفتوحة مع الإرهابيين، ولو تمكن بعض الإرهابيين من التسلل إلى الداخل فسيتعامل العراقيون الوطنيون المنضوون وراء هدف التحرير

معهم باعتبارهم مخربين ويحكمون على المتعاونين معهم بالخيانة العظمى.

- تجنيب ملايين العراقيين الأبرياء المآسي والويلات التي حطت بساحتهم نتيجة الاحتلال وما جلبه من إرهاب وعمليات عسكرية وفوضى، وما نتج عنه من استشهاد ما يقارب المليون عراقي، وتشريد أربعة ملايين منهم داخل وخارج العراق وزرع القلق والاضطراب والريبة في نفوس غالبيتهم.
- منع ظهور الفتنة الطائفية التي أدت إلى التقاتل والتهجير المتبادل وفقدان الثقة بين الطوائف العراقية وإضعاف الوحدة الوطنية، وسيعتبر العراقيون كل من يثير الطائفية ويحرض عليها مندساً يهدف لإضعاف صفوفهم امام المحتلين، ولن يجد الطائفيون لدى العراقيين إذناً صاغية.
- إفشال مخطط تقسيم العراق إلى دويلات أو كانتونات إثنية وطائفية تمهيداً لاختفائه من على الخريطة السياسية والجغرافية، وهو الهدف المشترك لأعداء العراق من الأمريكان والصهاينة والأعراب.
- ستكون معركة التحرير، حتى لو اقتصرت على وسائل اللاعنف، مجال اختبار لقدرات وكفاءات الجماعات السياسية المشاركة فيها، وستكشف تحديات هذه المرحلة عن القادة الأكثر اقتداراً الذين يبرهنون عملياً على إخلاصهم واستقامتهم وبراعتهم في قيادة وتنظيم المرحلة وتوفير مستلزماتها، وسيكافئهم العراقيون في مرحلة ما بعد زوال الاحتلال بالتقدير الرفيع والتصويت لهم لو اختاروا المشاركة في العملية السياسية، وسيكون من غير المحتمل وصول قائمة أو مرشحين إلى مجلس النواب أو الحكومة على أساس انتماء طائفي أو مباركة قادة دينيين فقط.
- منع تفشي الفساد الإداري، إذ سيكون قادة حركة المقاومة وما يتصفون به من إخلاص واستعداد للتضحية القدوة الحسنة لكافة العراقيين، الذين لن يقبلوا بوجود مفسدين ومنحرفين بين صفوفهم.
- سيكون الانسحاب الأمريكي تحت ضغط قوى الشعب العراقي انتصاراً باهراً للعراق يرفع من مكانته بين شعوب المنطقة

والعالم، ويعزز من قدراته على أداء الدور اللائق به، ويمكنه من الحصول على كافة حقوقه الإقليمية، كما سيرتدع أعداؤه من التآمر عليه والتدخل في شؤونه.

- عندما ينتصر العراق في معركة تحرير أرضه من الاحتلال فسيكون أكثر قدرة على تحقيق أهدافه التنموية، نتيجة الزخم الكبير لذي ستخلفه المجابهة الناجحة مع المحتلين، وكذلك المعنويات العالية التي سيتمتع بها العراقيون المنتصرون.
- سيكون انتصار العراق بفرضه الجلاء على المحتلين رسالة بليغة إلى كل دول وشعوب العالم بأن أمريكا غير قادرة على بسط هيمنتها وفرض ثقافتها ونظامها السياسي والاقتصادي، مما سيساهم في إفشال مخططاتها الإقليمية والتعجيل بإسقاط الحكومات المستبدة المتحالفة معها والتي لا تخفي عداءها للعراق وسعيها الحثيث لإضعافه وتقسيمه.

هذه بعض الفوائد والمزايا العظيمة التي كانت ستتحقق لو أعلن كافة قادة العراق، كما فعل أجدادنا في ثورة العشرين العظيمة، مناهضتهم للاحتلال، واتكلوا بعد الله على سند العراقيين الوطنيين، ولو حدث ذلك لأجبروا المحتلين على الانسحاب في أقل من ستة شهور، وبتضحيات محدودة، ولكن عبيد السلطة والمناصب استعانوا بالمحتلين لفرض سيطرتهم على العراقيين، وتستروا وراء الوجود العسكري للمحتلين ليستأثروا بالمناصب السياسية والإدارية والعسكرية، وتعاونوا مع قوات الاحتلال في قتال المقاومين الوطنيين واغتيال زعماءهم وفرض العقوبات الجماعية على مناطقهم، وقد وفر هؤلاء المتسلطون في الحكومة والبرلمان الحجة والذريعة والفرصة للمحتلين لاستمرار احتلالهم وتحقيق أهدافهم الخبيثة وللإرهابيين وبقايا النظام البعثي البائد للإمعان في عملياتهم الإرهابية والتخريبية بدعوى مقاومة الاحتلال، فلا غرابة أن نجد بأن المحتلين الأمريكان والإرهابيين وأتباع النظام الطاغوتي وكذلك أركان النظام السياسي الفاسد يتفقون على معاداة من يقاوم المحتلين ويحمي مستضعفي العراقيين من الإرهابيين ويعارض عودة البعثيين إلى الحياة السياسية، والآن وقد أدرك

معظم العراقيين هذه الحقائق، فقد حان الأوان لكي يجمعوا على مقاومة الاحتلال وتطهير العراق من الإرهابيين والبعثيين، فالفرصة لم تضع بعد لكي يتوحد العراقيون وراء هذه الأهداف السامية، وجني ثمارها الطيبة بعون الله.

12 أيار 2008م

عورات ابن العاص وأشباه المثقفين العراقيين

كلما قرأت التاريخ طفرت إلى ذهني احتمالية لو، وبحرف لو فقط أعيد صياغة التاريخ، داخل عقلي بالطبع، فالتاريخ مسلسل في الزمن والحدث، وكل حدث يفضي إلى نتيجة، وهي الاخرى حدث أو أحداث تاريخية ، هكذا يتوالد التاريخ من نفسه، لو سقطت القسطنطينة في أول معركة فهل ستكون أوروبا كلها على دين الاسلام اليوم ؟ ولو دام حكم العرب في الأندلس سنين معدودات أخرى فلربما كان لهم السبق بدلاً من عدوتهم اللدودة الملكة إيزابيل في تمويل رحلة كولومبوس ولكان معظم سكان الأمريكيتين اليوم مسلمين ناطقين بالعربية بدلاً من الإسبانية والإنكليزية والبرتغالية.

والأهم من ذلك كله عورة عمرو بن العاص، الذي تحفظ ذاكرة التاريخ منظر مؤخرته القبيح التي اتقى بها سيف الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام، في واقعة صفين، كما روى البيهقي في كتابه المشهور المحاسن والمساوي(ج 1 ـ ص 38) : دخل عمرو بن العاص على معاوية وعنده ناس فلما رآه مقبلا استضحك ، فقال : يا أمير المؤمنين ؟ أضحك الله سنك وأدام سرورك وأقر عينك ما كل ما أرى يوجب الضحك . قال معاوية ؟ خطر ببالي يوم صفين يوم بارزت أهل العراق فحمل عليك علي بن أبي طالب رضي الله عنه فلما غشيك طرحت نفسك عن دابتك وأبديت عورتك ، كيف حضرك ذهنك في تلك الحال ؟ أما والله لقد واقفت هاشميا منافيا ولو شاء أن يقتلك لقتلك. فقال عمرو : يا معاوية إن كان أضحكك شأني فمن نفسك فاضحك ، أما والله لو بدا له من صفحتك مثل الذي بدا له من صفحتي لأوجع قذلك ، وأيتم عيالك ، وأنهب مالك ، وعزل سلطانك، غير أنك تحرزت منه بالرجال في أيديها العوالي ، أما إني قد رأيتك يوم دعاك إلى البراز فاحولت عيناك ، وأربد شدقاك ، وتنشر منخراك

، وعرق جبينك ، وبدا من أسفلك ما أكره ذكره . فقال معاوية : حسبك حيث بلغت لم نرد كل هذا".

ويورد البيهقي أيضاً (ص 39) بأن "أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال زعم ابن النابغة إني تلعابة تمزاحة ذو دعابة أعافس وامارس لا رأي لي في الحروب هيهات يمنعني من العفاس والمراس ذكر الموت والبعث فمن كان له قلب ففي هذا عن هذا واعظ أما وشر القول الكذب أنه ليحدث فيكذب ويعد فيخلف فإذا كان البأس فأعظم مكيدته أن يمنح القوم أسته.."

يومها لو لم يكشف ابن النابغة عن أسته لكان مصيره المحتم القتل، ولو هلك يومها، لما وجد معاوية ابن ابي سفيان من ينصحه برفع المصاحف، ولما حدثت فتنة الخوارج ولكانت نتيجة المعركة الهزيمة الكاملة والنهائية لمعاوية الفاسق وجماعته الباغية، ولأنتصر الاسلام الحق بقيادة الإمام علي عليه السلام، ولكان تاريخ المسلمين باهراً، ولكان المسلمون آنذاك واليوم في أحسن حال.

والعورة بالعورة تذكر، فكما أن كشف ابن النابغة لعورته جر على المسلمين الوبائل فكذلك عورات أشباه المثقفين العراقيين، وهي عورات معنوية متعددة، اجد نفسي مضطراً لتبيانها، خدمة لمصلحة العراق وأهله، الذين كانوا وما زالوا ضحايا لعورات وانحرافات أشباه المثقفين بين صفوفهم.

هنالك اشباه مثقفين كثيرون في العراق، لم ير العراقيون منهم سوى العورات، ابتداءً بعبد المحسن السعدون وليس انتهاءً بالإسلاميين والأصح المستسلمين وأنصار الإرهاب ومزوري الشهادات ومختلسي الأموال العامة وسماسرة المحسوبية والمنسوبية ومحيي الطائفية والقبلية.

كان النظام الملكي طائفياً وعنصرياً ومستغلاً وظالماً، لذا أنتج الكثير من أصحاب العورات، ونحتاج لمجلدات لتعدادهم وذكر عوراتهم، لذا سنكتفي بأربعة عبد المحسن السعدون ورشيد عالي الكيلاني وساطع الحصري وعبد الكريم قاسم.

عبد المحسن السعدون رئيس الوزراء العراقي نموذج لرجال العهد الملكي، من خريجي جامعات الإستانة، أو معاهدها العسكرية، بدأوا حياتهم عثمانيين، ثم تواطؤوا مع الإنكليز المحتلين، وانتهوا خاضعين لبريطانيا حتى تبددت عظمتها، أنهى السعدون حياته بالانتحار لأنه اتهم بالعمالة للإنكليز بعد اخفاقه في التوفيق بين إملاءات المحتلين ومطالب شعبه بالاستقلال والحرية، كما كتب في وصيته، وكان الأجدر به الوقوف مع شعبه ضد المحتلين، وما زالت عورته مجسمة في تمثاله في الشارع الذي يحمل اسمه وسط بغداد.

رشيد عالي الكيلاني هو الآخر أراد الاستقلال والحرية لشعبه، أو هكذا ادعى، لكنه في نفس الوقت لا يثق بهذا الشعب وحسن نواياه وقدراته العظيمة، لذا وبدلاً من التوكل على الله والاستعانة بالشعب على المحتلين وعملاءهم لجأ للألمان النازيين، فهو أول من استن الاستعانة بالأجانب، وشرعن الانقلابات العسكرية لتغيير نظام الحكم.

ساطع الحصري السوري المتجنس بالجنسية العراقية، من أشباه المثقفين، الذين ابتلى العراق والعراقيون بهم، هو معروف بأب القومية العربية بين العروبيين ومتهم بالطائفية بين شريحة كبيرة من العراقيين، والجمع بين هذين الصفتين عار على القوميين العروبيين، الذين اتخذوه رمزاً وقدوة، وبالمناسبة زاملت ولده الأستاذ خلدون، أو ربما الدكتور خلدون، اثناء دراستي بالجامعة الأمريكية في بيروت، وكان وقتها يحضر لشهادة الدكتوراة في التاريخ بالجامعة، وشاهدت مرات عديدة زوجته الفاضلة - وهي ابنة رشيد عالي الكيلاني – ملتاعة، تدور بين المقاهي والمطاعم القريبة من الجامعة باحثة عن زوجها خلدون ساطع الحصري، الذي كان يعاني من مشكلة الافراط في تناول الخمور، فتضطر زوجنه الكريمة لاستنقاذه واعادته لبيتهما، ولو انصرف ساطع الحصري لتربية ابنه بدلاً من تصديه الفاشل لتربية شباب العرب لأحسن صنعاً، لذا نقول مات الحصري العراقي السوري وترك وراءه عورات.

عورات نظام عبد الكريم قاسم كثيرة، ويكفيك أنه جاء بانقلاب عسكري، وحكم بقاعدة فرق تسد، فألب كل حزب على الآخر، وكل

فئة عرقية على غيرها، بل هو أول من ابتدع الفوضى الخلاقة، أو بالأحرى الهدامة، التي طبقها الاحتلال الأمريكي فيما بعد، والمصيبة أن كثيراً من اشباه المثقفين العراقيين ارتضوا العمل والتعاون مع هذا النظام على الرغم من رداءته الواضحة للعيان ونتائجه الكارثية على العراق ووحدة شعبه، وقد تسنى لي في لبنان اللقاء بأحد أركان هذا النظام وهو الدكتور هاشم جواد رحمه الله، وقد سألناه يوما: لم تعاونت مع عبد الكريم قاسم على الرغم من سياسته الرعناء فجاء رده بما معناه: لمنعه من التمادي في رعونته!

كل أشباه المثقفين الذين تعاونوا مع نظام البعث عورات، تهافتوا على الانتماء لحزبه، وتنافسوا على التملق له، وتزاحموا بالمناكب على المناصب في حكوماته، فما أكثر أصحاب الشهادات العليا المستوزرين في عهده، الذين لم يستنكفوا من العمل مع أعوان صدام من جلادي وجلاوزة الأمن ومخبري الحزب، وكان من المحتم أن يسيطر أشباه المثقفين على الجامعات ومراكز البحوث، فماذا كانت النتائج؟ يصف أحد أساتذة كلية العلوم بجامعة بغداد سابقاً الترقية العلمية لأساتذة الجامعات العراقية بالمهزلة المضحكة المبكية، وينقل بأن بعض البحوث العلمية التي قدمها أساتذة للحصول على ترقيات علمية أرسلت إلى مقيمين في الخارج فعادت وعليها تعليقات مقتضبة مثل: ارموها في القمامة أو شيء من هذا القبيل، لذا فقد لجأت الجامعة إلى القبول بالبحوث أو المقالات المنشورة في دوريات محلية غير محكمة، أي أن النشر فيها لا يخضع لشروط وضوابط التحكيم العلمي الرصين.

ولعل البعض منكم يتذكر "بكرين" و"صدامين"، والضجة الإعلامية التي رافقت الاعلان عن اكتشافهما، والاطراء والثناء الذي أغدقه النظام على مخترعها، وصدق كثير من العراقيين السذج بأنهما بالفعل عقاران فعالان لمرض السرطان، وقد انطلت الخدعة على قادة النظام وأتباعه من الأكاديميين لأنهم من أنصاف وأشباه المثقفين والعلماء، وبالفعل فقد قاموا باستعماله في علاج بعض المرضى في مدينة الطب، فماتوا. ومراكز البحوث العلمية التي طبل

لها النظام هي الأخرى لم تكن سوى خدعة كبيرة، أسسها النظام، واستغلها أشباه المثقفين والعلماء للحصول على المناصب الرفيعة والرواتب والمخصصات الكبيرة والإيفادات والبعثات والزمالات، ثم تبين فيما بعد بأنها مراكز عقيمة، بحوثها مستنسخة، ونتائجها مكررة، وأعجب ما فيها مركز لبحوث النخيل والتمور، ففي فترة نشاطه اندثر ما لا يقل عن ثلث نخيل العراق.

كل أصحاب الشهادات الذين انضموا لحزب البعث وتعاونوا معه هم وصوليون انتهازيون سلبيون استعلائيون خائبون، كان أحدهم زميلاً لي بالدراسة في الجامعة الأمريكية ببيروت في الستينات من القرن الماضي، كان طالباً متفوقاً وشيوعياً متحمساً، واحترمته لمواقفه وإن اختلفت معه عقائدياً، وبعد تخرجه من الجامعة سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليعود منها حاملاً شهادة الدكتوراة، بعد عشر سنين أو أكثر التقيت به صدفة في موقف سيارات الإدارة الحكومية التي عملت بها لسنوات ثلاث قبل الهجرة من عراق الطاغية صدام فعاتبني لأني لم أزره على الرغم من تجاور مقري عملنا، وكنت أنا في حينها موظفاً صغيراً مضطهداً من البعثيين وهو مدير عام، وبالطبع بعثي، وتأكد لي ذلك عندما فتح صندوق سيارته ليريني رشاش الكلاشينكوف قائلاً بأنه في طريقه للتدريب مع الجيش الشعبي، وانقطعت عني أخباره حتى الأمس القريب عندما قيل لي بأنه مرشح في الانتخابات الأخيرة في العراق، أي قيمة لهذه الحياة التي تبدأها شيوعياً ثم تصبح بعثياً من أجل منصب ثم تفقده وتعود لتطمح بمقعد برلماني، ولو نجح في الانتخابات فما الذي سيقدمه لهذا الوطن المنكوب بالعورات مثله من أشباه المثقفين الذين لا دين ولا قيم ولا اخلاق ولا وطنية لديهم.

بعد سقوط النظام البعثي التسلطي استبشرنا خيراً وتطلعنا إلى عهد جديد لا تكون فيه مشاركة لأصحاب العورات من السياسيين وغيرهم، ولكن تبين وللأسف بأنه لا يختلف عن النظم السابقة فكل هم الحكام الجدد على اختلاف طوائفهم وانتماءاتهم السياسية البقاء في السلطة بأي ثمن، لذا أدنوا منهم المنافقين والمتملقين

والوصوليين، وبالطبع كان لأشباه المثقفين حظوة خاصة لديهم، وهرع الكثيرون للحصول على شهادات مزورة، وتسابق البعض لنيل الدرجات العليا بالمراسلة، وهكذا تضافرت قوى الساسة المتهافتين على السلطة مع أشباه المثقفين المتهالكين على المناصب والمزورين الطامعين بالأموال العامة، وتكرر ما حدث في العهود السابقة لينطبق مرة أخرى المثل القائل بأن العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة.

في أوائل الثمانينات وقبل هجرتي من العراق بفترة قصيرة سألني سائق أجرة بعد أن عرف بأني من أصحاب الشهادات العليا: ماذا قدمتم انتم أصحاب الشهادات للعراق؟ فاحترت في الاجابة على سؤاله المحرج، وأظن كل أصحاب الشهادات الحقيقية الذين لم يلوثوا سمعتهم بالانتهازية والوصولية مازالوا محتارين في الإجابة على هذا السؤال حتى اليوم.

20 تشرين الأول 2011م

ما الذي قدمته النخب العلمانية العراقية؟

تجاهر النخب العلمانية العراقية بفلقها ازاء التطورات في الساحة السياسية، يحرك البعض منهم حرص خالص النوايا على مستقبل وطنهم، ويلهث البعض الاخر وراء مصالح وأهواء ضيقة، وفيما تختلف هذه النخب في انتماءاتها ومشاربها العقائدية والفكرية تتجمع حول قواسم مشتركة، مثل الديمقراطية والتعددية ووضع الدين تحت الإقامة الجبرية في المساجد والحوزات والضمائر، وتعتبرها مقومات الصيغة الأفضل للنظام السياسي العراقي قيد الإنشاء.

كان لهذه النخب أدوار ومساهمات في تشكيل ملامح النظم السياسية التي تعاقبت على حكم العراق، منذ ابتعاثه في القرن العشرين، بعد انتهاء الخلافة العثمانية، وتنسب لهذه النخب، بشقيها العسكري والمدني، معظم - إن لم يكن كل – الإنجازات المتواضعة وكذلك الإحباطات السياسية والإدارية والثقافية والعلمية، ولاشك بأن أي تقييم عادل وموضوعي لأداء هذه الشريحة الاجتماعية المهمة يستدعي بحثاً ميدانياً ومكتبياً، يتقصى عينة ممثلة من أفرادها، مستطلعاً خلفياتهم الاجتماعية وانتماءاتهم الثقافية والإثنية والدينية والمذهبية، ومحللاً أفكارهم ومواقفهم وممارساتهم، وقد حاول بعض الباحثين اقتحام هذا الموضوع الشائك والمستعصي، ولم يتألق منهم سوى ندرة، كان أكثرهم شهرة استاذي القدير في الجامعة الأميركية في بيروت الراحل حنا بطاطو، الذي لا غنى لأي باحث رصين في الشأن العراقي من الاستعانة بكتابه الموسوعي عن النخب العراقية، وكنت واحداً من الطلبة العراقيين القلة، الذي لم يستنكف عن مطاردتهم بأسئلته الدقيقة دائماً والمحرجة أحياناً

عن أقارب لي من أعضاء هذه النخب في العهود الملكية والجمهورية.

ومع تسجيل اعجابي الشديد بمثابرة الراحل الدكتور بطاطو، نادرة المثال بين الباحثين العرب، يخامرني إحساس قوي بأن وراء قضاءه سنين عديدة في اعداد بحثه صعوبة الموضوع وقلة مصادره الجاهزة، ولو لم يكن محتاراً في شرح وتفسير جوانبه لما احتاج لمعلوماتي المتواضعة وأرائي غير الناضجة في ذلك الحين.

وفي كل الأحوال فإن من خصائص البحث العلمي التواصل والتطور التراكمي، فلا يجوز الاكتفاء والتوقف عند بحث واحد، مهما بلغت دقة بياناته وعظمت نتائجه، ولا أدعي امتلاك بيانات أو معلومات تضاهي ما استعمله بطاطو في بحثه، ولكني أمتاز عليه بشيء واحد هو كوني من أهل الدار، الذين تفترض درايتهم ليس بشعاب بلادهم فقط وانما أيضاً بالقوى المحركة لمجتمعهم بما في ذلك الأفراد المؤثرين في حركة هذا المجتمع، ولم ينقطع اهتمامي البحثي بالموضوع منذ كتبت رسالة الماجستير عن مجلس الإعمار العراقي(1951-1958) في 1970. وضيق مساحة النشر لا يسمح بعرض البيانات لذا سأكتفي بالنتائج والاستنتاجات.

تعرف النخبة بأنها مجموعة من أفراد المجتمع الذين يمتلكون خصائص وصفات معينة تمنحهم مكانة مرموقة ودوراً اجتماعياً متميزاً، ولا شك بأن القادة السياسيين هم أبرز الأمثلة على هذه النخبة، والتركيز على العلمانيين منهم يستثنى النخب الدينية والذين يؤيدون دوراً ريادياً للدين في كافة الشؤون العامة. وقد استأثرت النخب العلمانية العراقية بالسلطة السياسية ومؤسساتها المدنية والعسكرية في عراق القرن العشرين، في عهديه الملكي والجمهوري، مفترضة أحقيتها بذلك على أساس المعرفة والاختصاص والحرص على المصلحة العامة والإخلاص للمباديء والأهداف السامية، ومحتكمه في الغالب إلى القوة والعنف في بسط هيمنتها واقصاء منافسيها وخصومها.

يستخلص من البيانات المتوفرة عن النخب العراقية العلمانية اتصافها، وبصورة عامة، بالخصائص التالية:

1. **الالتصاق بالسلطة السياسية**: ارتبطت النخب العلمانية بالسلطة السياسية، وتوزعت بين مشاركين ومؤيدين أو معارضين، حتى أصبحت السياسة في العراق حكراً على هذه النخب، بنوعيها المدني والعسكري، وهنالك عدة عوامل وراء هذه الظاهرة، من أهمها قوة الجذب للسلطة ومزاياها الاجتماعية والاقتصادية العديدة، واعتقاد النخب بجدارتها وأحقيتها بالقيادة السياسية، وضعف المنافسة من النخب الأخرى، أو نظرتها السلبية للسياسة، وتهميش دور الجمهور في العمل السياسي، وقد لا يتفق معظم أعضاء هذه النخب مع هذا التحليل، ويؤثرون تبريرات تبرز تسامي أهدافهم على المصالح الذاتية، ويحضرني مجلس في مقهى الأنكل سام المشهور في بيروت، جمعني وآخرين بالمرحوم الدكتور هاشم جواد، وزير خارجية عبد الكريم قاسم، في أواخر الستينات، وكان آنذاك رئيس بعثة الأمم المتحدة في لبنان، وأتذكر رده على سؤال حول سبب قبوله الوزارة في حكومة قاسم فأجاب بما معناه، وبلهجة المعتذر: كي أثنيه عن اتخاذ قرارات متسرعة وغير صائبة على عادته، أو شيء من هذا القبيل، ولا يخامرني أدنى شك في صدق وعلو مقاصده وسعة حكمته، التي قد تكون أنقذت العراق من الأسوأ في عهد الزعيم الأوحد.
 وقد أدركت حكومة البعث الشمولية أهمية الدور السياسي والترويجي للنخبة العلمانية فسعت إلى اجتذابها إلى داخل التنظيم السياسي لغرض استغلالها، أو على الأقل تحييدها، فأصدرت قانون أصحاب الكفاءات، واشترطت على العاملين في حقل التدريس العضوية في الحزب، ونكُّلت بالمعارضين والمستقلين منهم.

2. **الميل إلى التسلط**: لاشك أن العين الخارجية الناقدة تكشف الخفايا والدوافع التي تعجز أو تستنكف العين الداخلية من

رؤيتها، وتنطبق هذه الملاحظة على ما كتبه أعضاء النخب عن بعضهم البعض، ولعل من أصدق ما زعموه الاتهامات المتبادلة بينهم بالتسلط واللجوء إلى وسائل القسر بدلاً من الحوار ووسائل الإقناع في التعامل مع الأتباع والخصوم، ومنذ نشوء الدولة العراقية الحديثة في القرن العشرين تناوبت على حكمه نخب مدنية علمانية مختلفة، ليبرالية تقليدية وشيوعية وقومية، انهمكت كل واحدة منها في اضطهاد وتصفية منافسيها من النخب الأخرى، وإذا كان ذلك غير مستبعد من النخب العسكرية فهو مستهجن من النخب المدنية، وبالأخص المثقفة، والأغرب أن يدعي جميعهم التمسك بالديمقراطية، بصيغة أو أخرى، والحرص على نشر ممارستها بين النخب وغيرها.

3. **التعالي على الجمهور**: إن معظم أفراد النخب العلمانية من أصول مدنية، أو هم مدنيون بالاكتساب والانتماء، يمتلكون شهادات جامعية وخبرات إدارية ومهنية تميزهم عن غيرهم من العراقيين، ويعتبرون هذه الخصائص مؤهلات ضرورية لشغل مناصب قيادية سياسية وإدارية، والافتقار إليها سبباً كافياً للإقصاء عن دائرة التنافس على هذه المناصب، وقد نمَت هذه الاتجاهات لدى النخب اتجاهات فكرية وممارسات سلوكية استعلائية تجاه غير المنتمين إليها، تقف حواجز عالية ومنيعة أمام اتصالهم بالمجتمع وامكانيات تأثيرهم الفعال على اتجاهات وسلوك أفراده، وقد تمثلت هذه النظرة الاستعلائية في اصرار أحد قياديي تنظيم عراقي معارض في الثمانينات على انتقاء أعضاء التنظيم الجدد وفقاً لمعايير نخبوية ضيقة حتى اقتصر مجموعهم على عدد أصابع اليدين.

4. **الفئوية والتعصب للانتماءات التقليدية**: لم تنجح النخب في تكوين آطر وطنية مشتركة، توفر قاعدة عريضة ومتينة لبناء نظام وطني، يستقطب ولاء الفئات العرقية والدينية والطائفية المتنوعة، ويتيح لهم المشاركة في العملية السياسية السلمية، وبدلاً من ذلك تمسك العديد منهم بانتماءاتهم الضيقة، وقدموا الدعم المعنوي والمادي لتشتت الولاءات وعلى حساب الهوية والمصالح المشتركة، وأدت

الصراعات فيما بينهم على السلطة وغنائمها إلى نتائج وخيمة على العراق.

وقد صف الشاعر الراحل الجواهري في مذكراته مرارة معاناته في الحصول على وظيفة تعليمية، بسبب معارضة ساطع الحصري المشرف على التعليم في عهد الملك فيصل الأول، وعزا ذلك إلى دوافع فئوية وطائفية، وإذا كان من المتوقع أن تظهر الفئوية والطائفية والعنصرية في المجتمع العراقي المتنوع فقد كان حرياً بالنخبة العلمانية المثقفة مقاومتها لا تعميقها.

5. **الانفصام عن الموروث**: حفلت المؤلفات والنشرات العقائدية لهذه النخب بتمجيد الذات العربية، والإشادة بالعصر الذهبي العربي-الإسلامي، واذا كان من غير العملي توقع نسخ تلك الحقبة التاريخية المزدهرة على أيدي هذه النخب فإن من غير المفهوم موقفها المناوئ لأهم مقومات تلك القمة الحضارية، أي الإسلام وقيمه المتسامية، واتجاهها إلى إعادة تشكيل الوعي العراقي بمنأى عن هذا الموروث الثابت، الذي يشكل جوهر هوية سكانها، وأقوى مؤثر على فكرها وسلوكها.
6. **الانسلاخ عن الريف**: ويبرز انفصام آخر في نظرة الفئة المتمدنة من هذه النخب إلى الريف واعتباره مستقراً ومصدراً لقيم وممارسات التخلف في المجتمع، وابرز مثال على ذلك "نخب" النظام البعثي الصدامي العلماني المتنكر بدهاء ماكيافلي وراء ستر الطائفية والقبلية، والمتناسون بأنهم ريفيون أصلاً وفكراً وممارسة، وأن تبرءهم من القبلية والفئوية لم يتعدى الحناجر.

وأقل ما يمكن أن يوصف موقف هؤلاء "المتمدنين" تجاه ذويهم الريفيين الذين اقتطعوا الكثير من قوتهم القليل لتمويل تحصيلهم العلمي هو العقوق، فأشد ما يكرهه "المثقف المتمدن" وظيفة في الريف، ومقابل النزر اليسير من مشاريع التنمية التي حظت بها القرية العراقية تعرضت لاستغلال الحضريين، الأصليين منهم والطارئين، الذين لم يساعدوها على تجاوز سلبيات قبليتها، وسلطوا عليها شرارهم

من الحكام والحزبيين الفاسدين والمتجبرين والمرتشين، واثقلوا كاهلها بالجباية الضريبية، وأثكلوا نساءها بسوق أبناءهن وأزواجهن إلى حروبهم العبثية وحملاتهم القمعية.

7. **ضعف الإبداع وتغليب التقليد**: يغلب على فكر النخب العلمانية العراقية كثرة التقليد والنسخ وقلة الإبداع والابتكار، والدليل على ذلك أن معظم الحركات السياسية التي انتمت إليها، مثل الشيوعية والبعثية والقومية والناصرية والليبرالية مستوردة، أما التجمعات المنشأة محلياً، مثل الحزبين الوطني الديمقراطي والاستقلال، والتي اقتبست فكرها من الخارج، فقد اختفت من الوجود. ولم تكن انجازات النخب العلمية والتقنية والإدارية والمهنية أفضل من اسهاماتها السياسية، ولم ترتقي حتى إلى المستوى المتواضع للنخبة المصرية، وهي بالمقارنة بإنجازات النخب حديثة التكوين في الصين وكوريا الجنوبية وماليزيا وغيرها غير جديرة بالذكر تماماً.
8. **ازدواجية المشاعر تجاه الغرب**: تجاذبت النخب مشاعر متضاربة نحو الغرب، ولا يخفي أفرادها، باستثناء أقصى اليسار، إعجابهم بالتقدم الاقتصادي والتقني المتحقق في الغرب، ولكنهم، وباستثناء أقصى اليمين، يرفضون الوجه الاستعماري والاستغلالي القبيح للغرب، وقد أدت هذه المشاعر المتضاربة، وفي ظل ضعف الإبداع الفكري، إلى ظهور وتطبيق وصفات سياسية واقتصادية ممسوخة وفاشلة، مثل النظام البعثي العلماني الديكتاتوري والقومية الاشتراكية والاشتراكية" الرشيدة" وأخيراً الديمقراطية التوافقية الطائفية، التي أسسها افراد من هذه النخبة العلمانية وابتلي بتطبيقها احزاب الإسلام السياسي.

ونستنتج من ذلك بأن جل هذه النخب والتي تنطبق عليها هذه الملاحظات هم شركاء وليسوا ضحايا النظم المستبدة التي توالت على حكم العراق في القرن العشرين، وهم يتحملون مسؤولية تامة عن النجاحات القليلة والإخفاقات المفجعة في تلك الحقبة من الزمن، والتي أفضت إلى احتلال العراق وتخلفه الاقتصادي والتقني

والتربوي والاجتماعي وحدوث انقسامات حادة بين فئاته العرقية والدينية والطائفية وتغلب العنف على الأدوات السلمية في حسم الصراعات.

وحتى الآن لا توجد دلائل على صحوة هذه النخب، وإقرارها بالمسؤولية، ولو جزئياً، عما حل بالعراق في العقود الثمانية الماضية، والمبادرة إلى تشخيص وتصحيح جوانب القصور الذاتي في فكرها وأساليبها وممارساتها، وبما يمكنها من أداء دور رئيسي وإيجابي في إعادة بناء الدولة العراقية على مختلف الصعد، وعلى عكس هذه التوقعات أو الأمنيات تشهد الساحة العراقية تنافساً حاداً بين هذه النخب ذاتها لملأ الفراغ السياسي الناتج عن سقوط النظام البعثي، مفترضةً أحقيتها المطلقة بالسلطة، وقد دفعها القلق من تنامي المد الديني في المجتمع العراقي برمته إلى الترويج لإقصاء أتاتوركي للنخب المتدينة وحلفائها من القوى التقليدية من دائرة العمل السياسي، كما بلغ التهافت على السلطة ببعضهم إلى الدعوة لوصاية أمريكية دائمة لضمان علمانية النظام السياسي.

ولا تشجع هذه الملاحظات على التفاؤل من الدور المستقبلي لهذه النخب، ومن المحتمل ألا يكون لها دور إيجابي في بناء عراق جديد، إن لم تبادر إلى اجراء تقييم موضوعي لتاريخها ونقد ذاتها واصلاح منهجها.

20 كانون الأول 2010م

إلى وزير التعليم العالي: يقال أن عالماً عراقياً دحض نظرية أينشتاين وغير مجرى التاريخ !

لأول وهلة أحسنت الظن، صدقت الخبر وسررت به، وأي عراقي لا يسعده هذا الخبر؟ عالم عراقي غير أو سيغير مجرى التاريخ، ليس العراق أو العالم العربي ولا حتى عالمنا المعاصر بل مجرى التاريخ، إنه خبر يثلج قلوب العراقيين التي أرهقتها العمليات الإرهابية والانقسامات الطائفية والعرقية والخلافات السياسية والفساد.

بعد حسن الظن ساورني الشك، فالنفس أمارة بالسوء، إذ سرعان ما استيقظت وساوسها، ومعذورة نفسي فقد امتلأت قيحاً من أخبار تزوير الشهادات والأكاديميات المفتوحة على الساحة وأعوانهم واستشراء الطائفية والمحسوبية في الجامعات وآخرها خبر عن شهادتي دكتوراة لوزير التعليم العالي دفعة واحدة، قبل تداول خبر قرب استدعاءه للمثول أمام مجلس النواب.

قادتني الشكوك لتحري صحة الموضوع، وللموضوعية فأنا لست مختصاً بالفيزياء ولا الكيمياء لذا سأحتكم للمعايير العلمية العامة الخاصة بالنشر تاركاً التقييم العلمي للمختصين، والسؤال المطروح عليهم: هل هذا العالم العراقي وهو الدكتور بهجت محي الدين قد غير بالفعل مفاهيم "غابت حقائقها عن عباقرة التاريخ" بما فيهم أينشتاين؟

الخبر منشور في موقعي جامعتي بغداد والكوفة وغيرها:

http://www.uobaghdad.edu.iq/ArticlePrint.aspx?ID=774

http://www.kuiraq.com/ar/newsdetails.php?id=194

وتجدون معلومات وافية عن هذا الفتح العلمي الباهر المزعوم في المقالين التاليين وفقاً لمصدر الخبر:

On Heuristic Viewpoints Concerning the Mass, Energy and Light Concepts in Quantum Physics

http://www.eurojournals.com/ejsr%2022%204.htm

New Concept of Mass-Energy Equivalence

http://www.eurojournals.com/ejsr%2026%202.htm

المقالان منشوران عامي 2008 و2009 م وفي نفس الدورية وهي European Journal of Scientific Research، وفيما يلي بعض الملاحظات الجوهرية على المقالين والدورية:

أولاً: وجود تشابه ملحوظ بين عنواني المقال الأول والبحث المشهور لألبرت أينشتاين:

On a Heuristic Point of View about the Creation and Conversion of Light

ولا أدري ما الذي دفع بالباحث العراقي لذلك.

ثانياً: بعد قراءة الصفحات الأوائل من المقالين للباحث العراقي تبين أن هنالك فقرات متطابقة بينهما بالحرف، وهي زلة كبيرة للكاتب، تضعف القيمة العلمية للمقالين، وإن اقتضت الضرورة الاقتباس فلابد أن يكون في الحد الأنى، مع ضرورة اتباع القواعد العلمية في الاقتباس، ولا يعفي الكاتب من ذلك كون المقالان من تأليفه.

ثالثاً: كثرة الأخطاء اللغوية والنحوية في المقالين، مما يدل على أن المقالين لم يراجعا أويحكما، أو أن المحكمين الذين كلفوا بتقييمهما لم يهتموا بتنبيه المؤلف إلى هذه الأخطاء.

رابعاً: يستدل من سيرة الكاتب المنشورة في موسوعة الويكيبيديا بأنه متقاعد منذ عام 2007م (وعمره حينئذ خمسون عاماً إذ هو من مواليد 1957م) ويعمل حالياً في مجال خدمات قطاع النفط حيث

يمتلك ويدير شركة اسمها أريدو للخدمات النفطية ومقرها في الأردن، والمستهجن أن يقدم باحث يزعم تطوير نظريات أينشتاين وغيره من جهابذة العلماء على التقاعد المبكر جداً من التدريس والبحث ليتفرغ للعمل بقصد الربح، وفيما يلي رابط موقع الشركة الإلكتروني:

http://www.eriduoilservices.net/index.htm

يضم مجلس إدارة شركة أريدو الذي يترأسه الدكتور بهجت محي الدين ثلاثة أعضاء، أحدهم أردني الجنسية وعراقيان، هما المرحوم الدكتور جابر شنشول والمتوفي العام الماضي وهو من أقاربي، والعراقي الآخر هو الدكتور هلال البياتي وقد زاملته في الجامعة الأمريكية في بيروت، وكان حينئذ شيوعياً متحمساً، وكنت اختلف معه واحترمه، ثم بعد تخرجه أصبح بعثياً وعينه النظام البعثي المندثر مديراً عاماً لمركز الحاسبات الإلكترونية فحزنت عليه، واختصاصه الإحصاء لكن عمله في شركة أريدو بصفة مستشار اقتصادي.

وتصحيحاً للخبر المنشور في موقع جامعة الكوفة فإن MRSC التي يحملها الدكتور بهجت محي الدين ليست شهادة وإنما عضوية الجمعية الملكية البريطانية للكيمياء، وهي متاحة لكل فرد لديه ثلاث سنوات من الخبرة المناسبة بعد الشهادة الجامعية.

خامساً: من المثير للاهتمام والاستغراب أن بعض المصطلحات الواردة في المقالين ملونة بألوان مختلفة، فهنا مصطلح فيزيائي باللون الأحمر ومن ثم معادلة باللون الأزرق واسم عالم فيزيائي معروف بالأخضر، وقد تكون الكتابة بالألوان ملائمة لمذكرات طالب في الثانوية أو الجامعة لكنها غير معتادة في الدوريات العلمية الرصينة.

سادساً: كما بينت سابقاً لغة المقالين ركيكة والأخطاء النحوية والإملائية كثيرة جداً مما يعزز الشكوك بأن المقالات المنشورة في

هذه الدورية لا تراجع ولا تحكم وبالتالي فإن قيمتها العلمية غير مثبتة.

سابعاً: تفرض الدورية على الباحثين دفع مبلغ أربعمائة دولار – وكانت في السابق مائة وخمسون دولاراً فقط - لكل بحث قبل نشره، وهذا سبب آخر يدعو للشك في السمعة العلمية للدورية.

ثامناً: صدر من الدورية في العام 2011م أكثر من ستين عدداً، أي عدد واحد في الأسبوع على الأقل، وهو رقم قياسي لا مثيل له في هذا الصنف من الدوريات مما يضعف تماماً مصداقية كون الدورية محكمة، كما يحتوي كل عدد حوالي عشرين مقالاً، فيكون مجموع المقالات المنشورة سنوياً ألفاً ومائتين مقالاً، أي أن المطلوب من محرري الدورية استلام وقراءة ومراجعة وتصحيح ثلاثة أو أربعة مقالات علمية في اليوم الواحد وعلى مدار السنة، وهو مستحيل عملياً ويتطلب معجزة، ويدل دلالة قاطعة على انتفاء مراجعة وتحكيم محتويات الدورية، وبالمناسبة أقدر دخل الدورية بنصف مليون دولار سنوياً.

تاسعاً: الدورية غير مختصة بحقل واحد من حقول المعرفة بل هي شاملة لكل الاختصاصات العلمية مثل الفيزياء والكيمياء والأحياء والطب والبيئة والرياضيات وغيرها، وهذا أمر مستهجن وغير معتاد.

عاشراً: تدرج أعداد سابقة للدورية اسم رئيس تحريرها المدعو أدريان شتاينبرج وهو أيضاً رئيس تحرير دوريات أخرى من نفس المصدر في تخصصات متنوعة مثل العلوم الاجتماعية والاقتصاد والمالية والإدارة، ومنذ قرون خلت لم يسمع أحد بشخص ادعى الإلمام بكل هذه التخصصات.

أحد عشر: الدورية غير مرتبطة بجامعة أو مؤسسة أبحاث أو دار نشر معروفة، وفي بعض الأعداد الأول يرد ذكر مؤسسة (لولو) للنشر في أمريكا، وهي دار نشر على الإنترنت، وتنشر للجميع من دون تقييم وعلى حسابهم الخاص، ويمكن الحصول على أعداد الدورية من موقعها مجاناً، وتجدونها مصنفة في قسم منشورات Pets

(الحيوانات الأليفة)، كما يلاحظ أن الطريقة الوحيدة للاتصال بالدورية هي عبر بريدها الإلكتروني، والعنوان الوحيد المبين على موقعها يعود للشركة المالكة لهذه الدورية وغيرها من الدوريات المماثلة كما يبدو، ومقرها في جزيرة سيشل الواقعة في المحيط الهندي.

لكل هذه الأسباب أرجح أن تكون هذه الدورية تجارية بحتة أنشأت لغرض نشر بحوث أعضاء هيئة التدريس من جامعات الدول النامية لتسهيل حصولهم على الترقية العلمية.

وبالنسبة للدكتور بهجت محي الدين فينبغي عليه فوراً تقديم اعتذار علني لعائلة قريبي المتوفي الدكتور جابر شنشول وإزالة اسمه من الموقع الإلكتروني لشركته، أما بشأن ادعاءاته حول تغيير وجه التاريخ وبأن بعض نظريات أينشتاين خاطئة وأنه قام بوضع نظريات أصدق فوزارة التعليم العالي وجامعة بغداد وكلية العلوم فيها، التي منحت الدكتور بهجت محي الدين شهادة الدكتوراة وعمل فيها استاذاً، مطالبون وبإلحاح شديد وحفاظاً على سمعتهم بتشكيل لجنة علمية مستقلة من خارج الجامعات العراقية لدراسة مقالات هذا الباحث العراقي وتأكيد أو نفي هذه الادعاءات، واعلان النتائج على الملأ، وأكرر طلبي المبين في مقالة سابقة بضرورة اعتماد أرقى السياسات والتعليمات الخاصة بالبحث والنشر العلمي للتدريسيين واستثناء ما ينشرون في دوريات غير علمية من التقييم لغرض الترقية وارساء قاعدة اللجوء للمحكمين الخارجيين من غير العراقيين في تقييم البحوث المقدمة للترقية العلمية ولكافة الدرجات العلمية، وفي حالة عدم استجابة الوزارة والجامعات لطلبي فسأضطر لإبلاغ اليونسكو وغيرها من مؤسسات اعتماد الجامعات بذلك لتعيد النظر في تقييمها للجامعات العراقية بهدف الضغط عليها لتصحيح سياساتها وصولاً إلى ضمان مستقبل التعليم العالي في العراق.

19 اذار 2012م

وزارة التعليم العالي العراقية وجامعة بابل تروجان لكتاب طبي مخالف للمعايير العلمية الرصينة

نشر كتاب علمي حدث عادي، يتكرر كل يوم، وفي كافة حقول المعرفة، لذا استوقفني خبر نشر كتاب طبي، لثلاثة من أساتذة جامعة بابل، منشور في موقع الجامعة، ومواقع خبرية أخرى، بما فيها وزارة التعليم العالي، وفيما يلي رابط الخبر على موقع الجامعة:

http://www.uobabylon.edu.iq/uobcoleges/action_news.aspx?fid=2&nwid=2350

عنوان الخبر:دار نشر عالمية (ألمانية) تصدر كتابا لباحثين عراقيين من جامعة بابل / كلية الطب حول البروبولس (العكبر) العراقي.
ونقتطف من الخبر المقطع التالي:[أصدرت دار النشر الالمانية (لامبرت) كتابا للتدريسيين من كلية الطب /جامعة بابل الاستاذ الدكتور حبيب صاحب نهر والاستاذ المساعد علاء هاني الجراخ والمدرس ندى هندي بعنوان(البروبولس العراقي : التركيب الكيميائي والفعالية المضادة للمكروبات المرضية) واوضح الدكتور حبيب ان الكتاب يتضمن تحديد المركبات الكيميائية للبروبولس وفصلها عن بعضها ثم اختبار فعاليتها المضادة للمكروبات المرضية والتي شملت بكتريا مرضية وفطريات تم عزلها من اصابات سريرية مختلفة وذلك بهدف امكانية توظيف هذه المركبات لأغراض علاجية ضد الامراض المعدية التي تسببها الاحياء المجهرية.
واضاف الدكتور حبيب قائلا ولتعم الفائدة قمنا بمفاتحة دار النشر العالمية الالمانية (لامبرت) لطباعة الكتاب واصداره كمصدر علمي عالمي حيث ابدت دار النشر موافقتها على ذلك الطلب حيث قامت بطباعته واعتماده كمصدر علمي عالمي للاستفادة منه في مجالات

التدريس والمجالات العلاجية وتوزيعه على(80 الف) مكتبة علمية في عموم دول العالم.]

دفعني الفضول العلمي لزيارة موقع الناشر الألماني، فرابني ما وجدته، فقصدت مواقع الجامعات والتقييمات بحثاً عن تقييم موضوعي ومنصف لهذا الناشر فتأكدت بعض أسوء ظنوني.

تبين من المعلومات التي حصلت عليها من الناشر نفسه وغيره من المصادر بأن الناشر الألماني يقوم غالباً بالاتصال بالخريجين الجدد من حملة شهادتي الدكتوراة والماجستير، عارضاً عليهم نشر اطروحاتهم ورسائلهم الجامعية من دون مقابل، وهو عرض لا يقبله إلا اليائسون من نشرها من قبل ناشرين معروفين، ويعرف بالنشر بغرض التباهي أو التفاخر أو ارضاءً للغرورvanity publishing سوى إن الباحث أو الاستاذ الجامعي لا يدفع ثمن طباعة مخطوطته، والسر وراء ذلك هو أن دار لامبرت الألمانية لا تضمن للكاتب سوى طباعة نسخة واحدة فقط من كتابه، وهي النسخة الوحيدة التي تزوده بها، ولا تقدم على طباعة نسخ منها إلا إذا استلمت طلباً بذلك من مشترين وهو ما يعرف بالطباعة عند الطلب Print to order كما أنها لا تسوق الكتب التي تقوم بنشرها، وتضع أسعاراً باهظة لها، وهي سياسة عقيمة لبيع اطروحات ورسائل جامعية يمكن الاطلاع عليها مجاناً في مواقع الجامعات أو المواقع المتخصصة، والظاهر أنهم يتوقعون جني أرباحهم من النسخ التي يطلبها الكاتب من كتابه لتوزيعها على الأقارب والأصدقاء وغيرهم للتفاخر والأبهة، ولو اشترى غيره نسخاً من الكتاب فعلى الأغلب سيتلقى المؤلف العوائد عيناً لا نقداً، وبشكل قسائم لشراء كتب أخرى من اصدار الناشر، ولكنهم يطلبون من المؤلف تزويدهم برقم حسابه المصرفي هو ما يتخوف ويحذر منه البعض.

الطامة الكبرى في النشر لدى شركة لامبرت هو أنها تنشر من دون مراجعة رصينة وتقييم علمي، إذ تنشر المخطوطة كما تستلمها من مؤلفها، وبذلك تنتفي الصفة العلمية عن مطبوعاتها، ولا يجوز قبولها في التقييم العلمي والترقية لأساتذة الجامعة، بل إن هذا

النوع من النشر يسيء إلى سمعة الاكاديمي والباحث، ورداً على استفسارات حول النشر مع لامبرت نصح موقع موجه لباحثي جامعة سوينبورن للتكنولوجيا في استراليا بتجنب النشر من دون تقييم علمي:

Publishing in sources that are not peer-reviewed can adversely affect your academic career

في ضوء هذه المعلومات يتأكد لنا بأن الكتاب الذي بشرتنا به جامعة بابل ووزارة التعليم العالي العراقية وغيرها من المواقع منشور من غير تقييم علمي رصين، كما أن دار النشر الألمانية لا تعد بتوزيعه على 80 ألف مكتبة علمية كما يشير الخبر لأنها لا تطبع سوى نسخة واحدة ترسلها للكاتب، ولن تطبع غيرها إلا إذا تلقت طلباً بذلك، وبعدد النسخ المطلوبة، فلا يجوز القول بأنها اعتمدته (كمصدر علمي عالمي للاستفادة منه في مجالات التدريس والمجالات العلاجية) كما ورد في الخبر المنشور في موقع جامعة بابل.

أحد المعلقين على الخبر المنشور في موقع عراق القانون ذكر بأنه هو الأخر صدر له كتاب عن دار النشر الألمانية، فعدت مجدداً للبحث في موقع الناشر الألماني، وبالتحديد بين قوائم الكتب فكانت المفاجأة المفجعة، كتب أخرى من تأليف اكاديميين من جامعات عراقية، أصدرتها دار لامبرت الألمانية، وكلها من غير مراجعة أو تقييم، والهدف منها وكما هو معروف حصولهم على الترقية العلمية.

قد تكون هذ الحالات غير كافية للحكم على المستوى العلمي لأساتذة الجامعات العراقية، لكنها كافية للبرهان على غياب الرقابة العلمية في جامعة طب بابل وجامعة بابل ووزارة التعليم العالي وهو أمر مثير للذعر، إذ يثير الشكوك حول نوعية الأطباء وغيرهم من خريجي الجامعات العراقية.

ينبغي على وزير التعليم العالي ومن دون تأخير تشكيل لجنة علمية لدراسة هذه الظاهرة واصدار القواعد والضوابط للنشر

العلمي واعتبار ما ينشره اساتذة الجامعات العراقية في دار النشر لامبرت وأمثالها غير مقبول لأغراض الترقية الأكاديمية وبأثر رجعي، وأي تقاعس أو تساهل من الوزير في معالجة هذه الظاهرة سيكون له أسوء العواقب على السمعة العلمية للجامعات العراقية وأساتذتها وطلابها وعلى مستقبل التعليم العالي في العراق برمته.

1 اذار 2012م

لماذا حضر ميكي ماوس وسانتا كلوز حفل تخرج جامعة المثنى؟

لم أحضر حفل التخرج، شاهدته بالصدفة، عبر بث مباشر لقناة العراقية، صوت عريف الحفل الجهوري وخطابه الحماسي بقايا من عهد غابر، وقف خلفه ثلة من الرجال، يتحدثون بأجهزة محمولة، يبتسمون ويؤشرون بأيديهم، غلب اغراء الظهور على الشاشات المضيئة وقارهم.

تحركت أجهزة التصوير لتسجل مسيرة أساتذة الجامعة، البعض منهم اصطحب أبناءه معه، منظر غير معتاد، أستاذ جامعي بحلة الأساتذة المهيبة، يقود بيده طفلا صغيراً، لعل والدته توسلت إليه ليأخذه معه "للونسة"، تصرف نشاز لكنه محتمل.

ظهر في زاوية الشاشة، اطلالته سريعة، ثم اختفى أو بالأحرى تحولت عنه عدسة التصوير، ما شاهدته عيناي استنكره عقلي، بعد انتظار ممل عاد للظهور، عملاق ملأ الشاشة، هبت نسمة هواء فتهادى يميناً وشمالاً، ليس فحل نخل، بل بالون ضخم، على هيئة ميكي ماوس، تساءلت مع نفسي إن كان قد حظر وحده أم مع بقية أقاربه من الفئران ورفاقه من البط الناطقين، وبالفعل كان له رفيق من نوعه، أي بالون ضخم منفوخ اخر، ولكن على هيئة إنسان لا حيوان، وبالتحديد سانتا كلوز.

ميكي ماوس رمز من رموز أمريكا، وهو خرافي أو مصطنع مثل بقية رموزها: تمثال الحرية ووثيقة حقوق الإنسان وأرض الحليب والعسل، لكن ما الصفة التي حضر بها حفل التخرج؟ ربما لتسلية أولاد الأساتذة.

الأدهى هو سانتا كلوز، هو خرافي أيضاً، مثل ميكي ماوس، إلا إذا كنت تصدق بأن رجلاً عجوزاً يقطن القطب الشمالي يصنع ألعاب كل أولاد الغربيين ويتنقل طائراً على زلاجة جليد تجرها أو تطير بها غزلان الرنة ويتسلل عبر فتحات المداخن كاللصوص ليوصل الألعاب إلى الأطفال المؤدبين، في ليلة واحدة، قبل احتفالهم بذكرى ميلاد المسيح.

لعل إدارة جامعة المثنى وأساتذتها المحترمون لا يدركون هوية سانتا كلوز، فهو شخصية دينية، لا صلة لها بمحافظة المثنى وعقيدة سكانها، وبالتأكيد هي على النقيض من كل ما تعلمه طلاب الجامعة من معارف واقعية ومناهج علمية، فكيف تسللت هذه الشخصية الأسطورية إلى حفل تخرج جامعة المثنى؟ أترك الحكم لمن يقرأ هذا المقال.

أما الأمرّ فهو ما جاء في خطاب لوزير التعليم العالي والبحث العلمي، ألقاه في حفل تخرج جامعة أخرى، ذكر الحضور والمشاهدين بأهمية البحث العلمي، ودعا أساتذة الجامعات للمزيد من البحوث العلمية، ملقياً عليهم المسؤولية، من دون أن يعدهم بموارد مناسبة للبحث العلمي، قبلها بفترة قصيرة كان موقع الوزارة وبعض الجامعات قد هلل وطبل لاختيار عميد كلية الصيدلة في احدى الجامعات العراقية مقيماً للبحوث العلمية في دورية، قيل بإنها عالمية ورصينة، ويبدو بأن هذه الوزارة وبعض عمداء الكليات العلمية يجهلون بأن تقييم البحوث العلمية المقدمة للنشر واحدة من أبسط مهام كل أستاذ جامعي، وليس هنالك أستاذ جامعي لم يمارسها، وهي من أقل المهام الأكاديمية في أهميتها، وغالباً ما يهمل أساتذة الجامعة ذكرها في سيرهم الذاتية، لأنها لا تتسع لذكر جميع التقييمات، ولكن هل يستطيع وزير التعليم العالي والبحث العلمي أن يثبت لنا بأن الدوريات التي تنشر بها الكثير من أبحاث أساتذة الجامعات العراقية هي بالفعل محكمة ورصينة؟ للتأكد شخصياً من الموضوع تحريت بعض هذه الدوريات، فوجدت بأنها أما صادرة من جامعات عراقية أوهي شبه تجارية، تشترط للنشر دفع

مبالغ كبيرة، تصل أحياناً إلى آلاف الدولارات، والبعض منها يغري الكتاب بتخفيضات أشبه بتخفيضات المحلات التجارية.

ذكرني خطاب وزير التعليم العالي والبحث العلمي واحتفاء وزارته باختيار عميد كلية مقيماً للبحوث بذلك الأكاديمي العراقي الذي ادعى بأنه دحض نظريات اينشتاين، وكتبت عنه مقالة، وهو الآخر أثنت عليه الوزارة، وتوصلت إلى نتيجة بأن احتفال تخرج جامعة المثنى وغيرها من جامعات العراق لا يكتمل من دون حضور البحث العلمي، واقترح على الوزارة تصميم بالون ضخم يرمز للبحث العلمي في العراق، يوضع بجانب ميكي ماوس وسانتا كلوز في كل حفل تخرج، فالثلاثة من نوع واحد: وهم أو خرافة.

20 تشرين الأول 2013م

(للإسلام غايتان عظمتان هما الإحياء والاصلاح، ووسيلة كبرى وهي التعلم)

(فخامة) طالباني و(دولة) المالكي و(سعادة) الوزراء

لم يمض وقت طويل على وصولهم للسلطة، حتى اكتسبوا صفات الحكام، وصارت لهم ألقاباً يختصون بها، ويتنابزون بها بينهم، بئس الأسماء الفسوق، وسيان إن اختاروا لأنفسهم هذه الألقاب، ام أسبغها عليهم مرؤوسيهم في وسائل الإعلام تزلفاً، أم أضفاها عليهم محترفو العهر بالألسن من المحسوبين على الإعلام وكتاب المواقع الإلكترونية نفاقاً، فالظاهر أنهم راضون بهذه الألقاب، فلم نسمع أو نقرأ استنكاراً أو اعتراضاً من أحدهم على ترداد هذه الألقاب، وهم بذلك سائرون على خطى الطغاة والمستكبرين، ومن قبلهم كان صدام حسين، صاحب المائة اسم حسن، التي ابتدعها له حسن العلوي، رئيس تحرير مجلة ألف باء البعثية سابقاً و"المعارض" لاحقاً، فزاد له على اسماء الله الحسنى اسماً واحداً .

الفخم بفتح الفاء وضم الخاء وفتح الميم في اللغة هو الضخم، وبفتح الفاء وسكون الخاء وضم الميم عظيم القدر، فأيهما ينطبق على طالباني؟ هو رجل ضخم بالتأكيد، بل أضخم رئيس جمهورية معاصر، ولعله الأضخم في تاريخ رؤوساء الدول، وقد يكون من أثقل العراقيين وزناً، أما القدر العظيم فيعود لمنصبه لا لشخصه، أو هكذا القاعدة في الدول الديمقراطية، إن كان النظام السياسي العراقي ديمقراطياً حقاً، وحتى الرئيس الأمريكي بوش لقبه سيد، مثله مثل جامع القمامة في أمريكا، فهل من المعقول أن يكون لقب الأمريكي صاحب الكلمة النهائية في العراق (سيد) ولقب رئيس العراق التابع لأمريكا (فخامة)، بالأمس برر طالباني مصافحته للصهيوني السفاح باراك متذرعاً بعضويته في الاشتراكية الدولية، فهل لقب (فخامة) مقبول لدى الاشتراكيين؟ وكنت أظن بأنهم لا يرضون بغير (رفيق).

لقب (دولة) أفخم من الـ(فخامة)، لذا هنالك شد وجذب بينهما، والغلبة حتى الآن لـ(فخامة)، وكلما أراد (دولة) المالكي البرهان على وجود الدولة، لكي يحق له الاحتفاظ باللقب، انبرى له طالباني

ورهطه، لتذكيره بأن هنالك دولتان، لا واحدة، وإذا كانت القضية الفلسطينية ستحل بإنشاء دولتين متجاورتين فالحل للقضية الكردية يتطلب دولتين أيضاً، ولكنهما دولة ضمن دولة، وكما يحدث في أفلام الرعب سيأتي اليوم الذي تشق الدولة الكامنة بطن الدولة الحاضنة وتخرج منها إلى حيز الاستقلال، وحتى لا يصدق المالكي بأنه (دولة) بحق وحقيق، ويستقل بقراراته، تذكره أمريكا بين الحين والآخر بأن لا دولة من دون استقلال، فلا أحد يحتج على صحواتها، ولا أحد يعترض على قراراتها، ولا أحد يساءل جندها، ولو علت عين المالكي على حاجب أمريكا فستحجب الثقة عن وزارته، وإن أصر المالكي على عصيانهم، فسيدفع أهله في طويريج الثمن الباهض، لأن أمريكا تطبق العرف العشائري، وفي الجريرة تشترك العشيرة، وبالتالي نحن مجرد عشائر، ولازلنا بانتظار الدولة، ولكن لا تزال هنالك فرصة أخيرة أمامه، فلو رفض التوقيع على الاتفاقية الأمنية ستكون خير بداية لإعادة بناء الدولة العراقية وإنقاذها من الحوت الأمريكي الذي يهدد بابتلاعها ومن المسخ الكردي تحت التكوين الذي ينوي تفجير أحشائها من الداخل.

(أصحاب السعادة) الوزراء هم شر البلية، ولكن العراقيين لا يضحكون، بل لم يجنوا منهم سوى الغم والحزن، وأقلهم اتعاساً لنا هم الذين عادوا ليملئوا الجيوب من المال العام ثم شدوا الرحال من جديد. وزير الكهرباء قطعاً سعيد بتوزيره لكن العراقيين غير سعيدين بقطعه الكهرباء، ولو وجدنا مريضاً واحداً راضياً بخدمات وزارة الصحة لارتضينا لوزير الصحة لقب (صاحب السعادة)، وأي سعادة يستحق وزراء الخدمات بعد أن شحت المياه واغبرت الخضراء وخسف الوجه الحسن، ولكن العراقيين سيغفرون تقصير أصحاب السعادة إذا لم يمددوا للاحتلال بتوقيعهم الاتفاقية الأمنية مع الأمريكان.

يروى عن النبي عيسى بن مريم عليه السلام قوله: ليس بالخبز وحده يعيش الإنسان، وأقول لا دولة أو فخامة أو سعادة مع الذل، ولو خير أصحاب الفخامة والدولة والسعادة العراقيين بين الخبز

والكرامة، لاختاروا الكرامة مع الاستقلال والحرية ورفض الاتفاقية الأمنية.

25 أيلول 2008م

أما زال العراقيون يسخرون من الهنود؟

عندما يعاب على عراقي تصرف ما يرد نافياً عن نفسه التهمة ومستنكراً بالقول: وهل أنا هندي؟ والقصد أنه لو كان هندياً لتصرف بحماقة، أما ولكونه عراقياً فمن المحال.

في أيام الطاغية البعثي نشرت صحيفة تابعة لابن الطاغية الفاسد سلسلة مقالات تشكك في عروبة قبائل الجنوب، وتدعي أنهم أحفاد الزط الهنود، الذين استقدموا في العهد الأموي مع جواميسهم واسكنوا جنوب العراق لتعميره، وهي فرية لا تستحق الاهتمام، وما يهمنا من التذكير بها هنا هي مدلولاتها العنصرية، إذ يتبنى كثير من العرب نظرة عنصرية استعلائية تجاه الأقوام الأخرى ومنهم الهنود.

لا فضل للعراقيين على الهنود في نشوء الحضارة، فالحضارتان الهندية والعراقية قديمتان، عمر الحضارة الهندية خمسة ألاف سنة، وفي العراق أيضاً.

الهند شبه قارة ومساحتها تزيد على ثلاثة ملايين كيلومتر مربع، والعراق في وضعه الحالي شبه دولة، ومساحته أقل من نصف مليون كيلومتر مربع.

اتسعت أرض الهند لأكثر من مليار إنسان أو سدس البشرية تقريباً، أما في العراق فقد ضاقت الأرض بما رحبت على ثلاثين مليون نفر فقط.

توجد في الهند ألفا مجموعة إثنية، يعيشون في سلام ووئام، أما في العراق اثنتان فقط: العرب والكرد، والصراع بينهما قائم منذ عشرات السنين، ويطمح الكرد للاستقلال عن العرب، وبالطبع يسخر كل منهما من الآخر.

عدد اللغات الرسمية في الهند ثمانية عشر، وينطق سكانها بأكثر من ثلاثمائة لغة، وألف وستمائة لهجة أو لغة محكية، وفي العراق لغتان العربية والكردية، ومع ذلك فالاتصال والتفاهم بين العراقيين شبه مفقود، وكأن لعنة بلبلة ألسنة مشيدي برج بابل ما تزال سارية.

في الهند عدد غير قليل من الأديان والطوائف الدينية، وكل شيء تقريباً يعبد في الهند، بما في ذلك الله والمسيح ويهوه والأصنام والبقر والفيلة والقرود والفئران، فيما معظم العراقيين مسلمون موحدون، ولكنهم كما يبدو مقصرون في حق الله وغير مستحقين للحياة الطيبة التي وعد الله بها عباده الصالحين.

كانت الهند دويلات متفرقة ومتشاحنة ثم توحدت في فدرالية قوية ومتماسكة، وكان العراق دولة موحدة وأصبح فدرالية مهلهلة، واليوم سائر في طريق الانحدار نحو التقسيم.

في الهند نظام برلماني علماني وأكبر ديمقراطية في العالم عمرها ستون سنة متواصلة، أما في العراق فالنظام المستحدث منذ عشر سنين طائفي تحاصصي توافقي، أي باختصار مسخ.

في الهند تسع عشرة ولاية وخمس مقاطعات تدار بكفاءة وتنسيق عاليين، وفي العراق إقليم واحد، ويبدو العراقيون عاجزين عن إدارة شؤونهم بالحسنى، وهم على شفير حرب أهلية عبثية.

ترتيب الاقتصاد الهندي هو الرابع في العالم، أو العاشر من حيث الناتج الإجمالي الكلي، ولديها أقوى قطاع في تكنولوجيا المعلومات في العالم، والعراق من أثرى الدول في الموارد الطبيعية، وهو من أفقر الدول، من حيث التنمية والدخل الفردي، وما يزال في مرحلة ترميم وتطوير بنيته التحتية.

هل الاحتلال الأجنبي هو السبب الوحيد في تدهور الوضع العراقي؟ احتلت بريطانيا الهند والعراق، جثم الاحتلال البريطاني على أرض الهند حوالي مائتي عام، أما في العراق فلم يدم سوى بضع سنين، ثم احتله الأمريكيون مؤخراً بسبب نظامه التسلطي السابق ومغامراته العسكرية الحمقاء، وعاثوا فيه فساداً وتخريباً.

استقلت الهند في 1947م وتمكنت خلال هذه الفترة الزمنية القصيرة نسبياً منذ الاستقلال على تجاوز ترسبات الاحتلال الأجنبي، وأكملت استقلالها، واتمت قدراتها العسكرية، وبسطت سيادتها على كامل أراضيها، أما العراق فقد كبل نفسه باتفاقية أمنية استراتيجية مع الحكومة الأمريكية، ويرفض قادته الفاشلون والفاسدون والكثير من مواطنيه تحمل المسؤولية عن تدهور أحواله، ويلقون بها أو بمعظمها على الاحتلال والتدخلات الأجنبية الحقيقية منها والمزعومة.

بعد هذه المقارنة السريعة نسأل هل يحق لعراقيين السخرية من الهنود؟ بل هل يلام أحد اليوم لو سخر من العراقيين وأوضاعهم المزرية؟ لا يحل لقوم أن يسخروا من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم، ورحم الله قوماً عرفوا قدر أنفسهم، فنهضوا لتغيير ما فيها وإصلاحها.

(للإسلام غايتان عظمتان هما الإحياء والإصلاح ووسيلة كبرى هي التعلم)

18 تموز 2014م

رسالة تخيلية من ضحايا التفجيرات الإرهابية: انصرونا بقصاصة قماش!

لو أسعفتهم حناجرهم ليهمسوا بكلمات أخيرة، أو استطاعت أصابعهم خط بعض كلمات بمداد دمائهم فبماذا كانوا سيوصون؟ لكنهم رحلوا على عجل، ولم يتركوا لنا سوى الحسرة والفجيعة، ولا سبيل لاستنطاق أرواحهم فلم يبق سوى الخيال، سألته قبل الفجر إن كان يحمل رسالة منهم فأجابني:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمد لله، [قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً] في الناصرية باغتتنا المنية قبل كربلاء، فأكملنا المسير، حملاً على الأكف لا مشياً على الأقدام، وأخوتنا العمال باليومية من بغداد، عادوا إلى بيوتهم، وجيوبهم ملأت بالدماء لا النقود، فقد تعطلوا ذلك اليوم، وكل يوم تلاه، تركوا وراءهم عيالاً ملهوفة، ولكنهم مطمئنون، لوعد الله، فإن تأخر عن نجدتهم الأخوان وأهملهم أصحاب السلطة والنفوذ، فالله لا ينسى عباده، وسيؤتيهم من فضله.

لا نريد منكم مراسم عزاء، ولا نتوقع منكم رسائل غضب أو مسيرات استنكار، وننهاكم عن الثأر أو الاقتصاص من غير الجناة.

ليس لديكم ما تقدمونه لنا سوى الترحم علينا، ورحمة الله أوسع، فقد باء قاتلونا بذنوبنا، فأصبحت نفوسنا أنقى من الثلج، لكننا وإن كنا موتى قادرون على العطاء، ونريد أن نهبكم دماءنا، لتجعلوها درعاً لكم، يقيكم مصيرنا المؤلم.

احفظوا ذكرانا لعام واحد، أو ما تبقى من هذا العام، ثلاثمائة وستون يوماً فقط، وأنتم قادرون على الوفاء، ثلاثمائة وستون يوماً، تذكروننا فيها لا تخليداً لذكرانا وإنما لتقوا أنفسكم وأهليكم الإرهاب.

اذكرونا بشريط أسود، عشرون في خمسة سنتمترات، تلبسونه على أذرعكم، أينما حللتم، وادعوا الآخرين ليتضامنوا معكم، ويرتدوا الأشرطة السوداء، وانظروا ما هم فاعلين.

الشريط الأسود هو أيضاً المهلة الأولى لأصحاب السلطة والقرار، ليوفوا بعهودهم في القضاء المبرم على الإرهاب وتجفيف منابعه، فإن استمر الإرهاب بعد انقضاء أربعة شهور، يكون الوقت قد حان لارتداء شريط ثان بجانب الأول، أصفر اللون، للدلالة على اقتراب نفاذ صبركم، ولو انتهت المهلة الثانية وامدها أربعة شهور اخرى، اضيفوا شريطاً ثالثاً أحمر اللون، هو إنذار اخير لمن يهمه الأمر، فأما الوفاء بالعهد أو مغادرة حلبة السياسة إلى الأبد، والمقصود به كل السياسيين في الرئاسة والحكومة ومجلس النواب والمحافظات، وهو أيضاً عهد منكم مع الله بعدم التصويت لأي منهم أو لأحزابهم في الانتخابات القادمة.

اليوم تتردد التصريحات المحذرة من حرب طائفية، ولو حدثت لا سمح الله فسيكون للعراق النصيب الأوفر من نتائجها الدامية والمدمرة، لذا ننصح كافة أخوتنا العراقيين الأحياء بالحذر من الفتنة القادمة، ورص صفوفهم ضد الإرهاب، والاتقاء من الفتنة والإرهاب ولو بقصاصة قماش.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

7 كانون الثاني 2012م

براءة من البريئة مريم

(مريم علي طفلة عراقية من ضحايا الإرهاب)

من دلك علي يا مريم؟
أنا الهارب من رسائلكم إلى أقاصي الأرض،
لا الصمم اسكت أصواتكم،
ولا يسأم بصري الكليل من استحضار أشباحكم،
وحتى الخرف لئيم، لو حل سيستثني ذكركم.

تعلمت أن الهروب ليس بقطع المسافات،
ولا بعدد البحار الفاصلة،
فأنتم قريبون،
ولو كنت على كوكب آخر،
وحاضرون على أي حال،
وإن كان بالأشلاء، أو الدماء،
أو حتى بقع سوداء، على قارعة طريق، عجزت عن غسلها كل
خراطيم المياه.

مضت كل هذي السنين،
تراكم في نفسي أحزانها،
وتجتث منها النزر من افراحها،
حتى بلغ القلب أرذل عمره،
فلا الفجيعة سرعت من نبضاته،
ولا لامست صورتك منه الشغاف .

أنا كنت مثلك يوماً طفلاً بريئاً،
عيناي مثل عينيك، تضجان بالأسئلة،
تتجاوز أبعاد المكان،

وتقفز فوق الزمان، نحو الأفق الأبعد،
تأففوا منها، لئلا تفضح خيباتهم،
وتكشف عن أحلامهم المجهضة.

وهذا رداؤك الأحمر،
وكنت أظنهم حرّموه،
أو منعوا استيراده،
فهو يشحذ شر الحاسدين،
ويغيظ أهل السواد، بلد الحداد اللامنتهي.

يا مريم ما لك والابتسام،
والضحك عندنا أندر،
وإن كان للملك النعمان يوم شؤم فكل أيامنا أكدر،
وكل ساع إلى رزقه مفقود،
ولا الخانس في داره يسلم.

عجيب أمركم،
وكل أحيائكم نكرات،
وحده الموت يعرف أسماءكم .

نتصنع البراءة، نحن المسالمون،
وليس منا من أفتى بحي على القتل،
لكن أرواحكم تزورني كل ليل،
ترقد ما بين الجفون،
بانتظار آخر صمتي.
سأكسره لأقول: كلنا مذنبون،
وفي الخطيئة نغرق،
وليس لدينا لك يا مريم
أنت البريئة أفضل

من البراءة منك.

18حزيران 2013م

أهوار العراق الميتة

" دكان الفخار مغلق"
تثاءبت الشقوق في الطين.
ولم يعد الفنانون يأتون هنا
لاستنساخ ملامح آدم الجميلة
ولا يتذكر الصمت
الحفلات الموسيقية للجنادب وذكور الضفادع
كما انمحت كل آثار أرجل الطيور
أثناء الانسحاب الأخير للماء
ولم يبق سوى القصب العنيد،
طويل مثل جنود وغير مؤذ مثل حشائش،
الذي يأنف من عرض أبواقه المصنوعة باليد
على الريح أثناء جولاتها الموسيقية
كما لاتزال هنالك قوارب مهملة
بترت أقدامها "النزارية"*
لتغرق تحت ثقل الهواء

---

* إشارة الى عيسى عليه السلام ومعجزة السير على الماء. قصيدة باللغة الإنجليزية منشورة في مجلة شعر كندية.

Dead Marshes of Iraq

By Hamid S. Atiyyah

The Pottery’s workshop is closed

The cracks in the mud yawned

And artists are no longer welcome

To copy the fine features of Adam.

Silence has no recollection

Of crickets and bullfrogs holding concert

And the birds’ footprints were all erased

During water’s final retreat

Only stubborn reeds remained

Tall as soldiers and harmless as grass

That no longer offer their hand-crafted flutes

To the wind on its musical tours

And few abandoned canoes

Deprived of their Nazarene feet

Sink under the weight of the air.

خطاب شديد اللهجة من العراق إلى من يسمون أنفسهم عراقيين

اقرأ خطابي!

يا من تحمل اسمي،

وتدعي حب الوطن،

سأخرج عن صمتي،

فقد حل يوم حسابكم.

أنا أعرف تاريخكم،

أنتم كتبتموه بالسيف والمعول،

على صفحات بردي الجنوب،

وبالنحت في كهوف الجبال،

مدونة أقبح أفعالكم.

وها هي ندباتي في كل صوب،

تفضح أطباعكم،

ثم تشتكون من غزاة؟

أنا هبة الله للآدميين،

فمن أشبه مني لجنة عدن؟

أنا موجود منذ القدم،

وتاريخكم بضع قرون،

هنا أناخ أجدادكم،

نكثوا عن أسمالهم رمال البوادي وروث الغنم،
داويت فطور أقدامهم،
بترابي البلسم،
عمدتهم بدجلة والفرات،
من أدران البداوة طهرتهم،
تكفلت أجدادكم الحفاة العراة،
من مغتصبي جبالي والسهول،
علمتهم لبس الثياب والنعال،
وبالعقال زينت رؤوسهم،
أنا صبغت سراويلهم في رؤوس الجبال،
ملأت بطونهم بالخبز واللحم،
ثم هم وأنتم تجحدون كل هذي النعم؟
أنا صنعة الله،
وكل ما في أرضي نعمة لكم،
وكل ما في نفوسكم نقمة علي.
أنا باقي ما دامت الأرض،
وأنتم كلكم مرتحلون،
هنا كان الماء قبل أن تكونوا،
والقمح قبل أن تزرعوا،
وكل الحروف قبل (ض)ادكم،
وكل شيء كان هنا قبلكم،
أنا علمت أرخميدس الهندسة،

وأخوانه الحكمة والفلسفة،

انا أب القوانين،

وأم الحضارة،

وهذا مهدها،

تحطمونه بأقدامكم،

فهل أنتظر طوفاناً جديداً

ليغسل عن أرضي أدرانكم؟

كم تساوون

لو غار مائي

أو أرضي تصحرت؟

وهل تبيعون أو تشترون

لولا نفطي الذي تستخرجون؟

يا من تهدمون بيوتكم،

وبالبكاء تطربون،

يا ذابحي البشر كالنعاج،

اكاد أغرق بالدماء،

وبالمقابر الجماعية اختنق،

وأجن من الأشلاء،

فلا أطيق الحياة بينكم،

فلتكن خاتمتي بزلزال،

أو فوران بركان،

إن كان ذا السبيل،

لخلاصي منكم.

7 تموز 2014م